الفصل الثانى

مكانة المهن والحرف فى الإسلام

يشتمل هذا الفصل على :

* **مقدمة .**
* **مكانة المهن والحرف عند العرب قبل الإسلام .**
* **مكانة المهن والحرف فى الإسلام .**
  - الحث على العمل والتشجيع عليه فى القرآن الكريم .
  - الحث على العمل فى السنة النبوية .
  - مكانة المهن والحرف عند الخلفاء الراشدين .
  - مكانة المهن والحرف عند علماء المسلمين .
* **أهمية العمل والكسب للفرد والمجتمع .**
* **دور الإسلام وتعاليمه فى نشر الحرف والمهن .**

مكانة المهن والحرف فى الإسلام

مقدمة :

لا يستطيع كلٌ من الإنسان والمجتمع أن يعيش دون أن يعتمد على مجموعة من الأدوات والأجهزة التى تساعده على ممارسة أنشطته الحياتية ، ولا يستطيع كل إنسان أن يصنع لنفسه كل ما يحتاجه من آلات وأدوات ؛ ولهذا فقد ظهرت تخصصات حرفية لدى الأفراد فى إنتاج الأدوات والقيام بالخدمات اللازمة للأفراد مقابل إنتاج وقيام الآخرين بخدمات متبادلة .

غير أن التوجهات الفكرية للمجتمعات تتفاوت فى تقديرها للحرفيين والحرف التى يمارسها الأفراد ؛ ولهذا فإن الفصل الحالى يستهدف توضيح مكانة الحرف عند العرب قبل الإسلام كتمهيد للحديث عن مكانة المهن والحرف فى الإسلام .

مكانة المهن والحرف عند العرب قبل الإسلام :

عرف العرب التجارة من قديم الزمن ، وكانت من أهم موارد الدخل عندهم ، كما كانت قوافلهم تقوم بنقل السلع بين شرق الجزيرة العربية وغربها وشمالها وجنوبها ، وقد سجل القرآن الكريم بعض ذلك فى قوله تعالى : ﴿ **لإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)** ﴾ [قريش] أى « جعل لهم فى التجارة الخير والرزق الذى عوضهم عن هذه الأودية الجرداء التى يقل فيها الزرع والماء ، وجعلهم يألفون رحلات الشتاء إلى اليمن ورحلات الصيف إلى بلاد الشام » (١) ، وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤)** ﴾ [النساء] ، « والضرب : السير فى الأرض ابتغاء الرزق » (٢) «تقول العرب : ضربت فى الأرض إذا سرت لتجارة أو غزو أوغيرها » (٣) .

---

(١) الإمام ابن كثير الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقى: تفسير القرآن العظيم ، دار التراث العربى للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، د . ت ، ج ٤ ، ص ٥٥٣ .

(٢) محمد بن أبى بكر الرازى : مختار الصحاح ، مرجع سابق ، ص ٣٧٨ ، ٣٧٩ .

(٣) أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق أبو إسحاق إبراهيم ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٧٦ م ، ج ٥ ، ص ٣٣٦ .

ويقول تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** (١٥٦) ﴾ [آل عمران] ، وفى هذا ما يؤكد ممارسة العرب الأوائل للتجارة .

وقد « اعتبر قسم من العرب الجاهليين الحرفة أو المهنة من الأمور المستهجنة ، فلا يليق بالعربى الحر الشريف أن يكون صانعاً ؛ لأن الصنعة من حرف العبيد والخدم والأعاجم والمستضعفين من الناس . بالإضافة إلى أن العربى كان يرى فيها تقييداً لحريته وحداً من حركته ، وقيل : إنهم إذا أرادوا تحقير إنسان وسبه بكلمة تكون مجمع السباب قالوا له : « يا بن الصانع » ، بل إن العدنانيين يعايرون اليمنيين بأنهم كانوا بين دابغ جلد وناسج برد » (١) .

ومما يؤكد ذلك أن « أحد الشعراء يهجو غريمه بأن أحد جدوده كان حداداً ، فكأنما وضع بهذا وصمة عار فى جبين القبيلة إلى الأبد ، هذا وربما يفضل أحدهم سؤال الناس على أن يعمل عملاً يعده ممتهناً وغير لائق بمثله » (٢) . « ونظرة العربى الحر إلى الفلاحة نظرة ازدراء وقلة تقدير ؛ ولذلك لم يقم بها فى الغالب إلا الفقراء من الحضر والعبيد والأجراء ، ولم يكن لهؤلاء فى المجتمع مكانة » (٣) .

وربما سادت تلك النظرة لأن تلك الحرف والمهن أصلاً كانت يدوية وكانت تقتضى عملاً شاقاً يشبه العبودية ، بالإضافة إلى أنها كانت محدودة الدخل .

إن نفس هذه النظرة كانت موجودة فى جميع المجتمعات القديمة قبل الإسلام ، «فالإسلام مسبوق فى الزمن بحضارتين هما حضارة الفرس وحضارة الروم ، فكانت كلٌ من الحضارتين تقسم العمل إلى قسمين : فكرى أو نظرى ـ ترفع من شأن هذا النوع ـ ويدوى أو جسدى ـ تخفض من شأنه ـ وكانت النتيجة المنطقية لهذا التقسيم إيثار الإنسان الذى صنعته الفكر المجرد على صاحب الصنعة اليدوية ، ومن هنا انقسم الناس إلى طوائف فى جمهورية أفلاطون ؛ حيث جعل الفلاسفة فى الذروة لأنهم رجال البحث والنظر والتأمل ، وجعل الزارع والصانع وسواء الشعب فى الطبقة الدنيا ؛ لأنهم أصحاب العمل اليدوى أو الجسمانى ، وجعل بين هؤلاء وأولئك طبقة وسطى هم الجنود . ولم يتخلص تلميذه أرسطو من هذه التفرقة ؛ حيث صاغ نظرية تقسم

---

(١) واضح الصمد : الصناعات والحرف عند العرب فى العصر الجاهلى ، الطبعة الأولى ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨١ م ، ص ١٥ .

(٢) يوسف القرضاوى: مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام ،مكتبة وهبة ، القاهرة ، د.ت ،ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٣) جواد على :تاريخ العرب قبل الإسلام ، مطبعة المجمع العلمى العراقى ، ١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٩ م ، ج ٨ ، ص ٢٨٩ .

الناس إلى : أشراف ، وعبيد . وكذلك الحال عند الفرس والعرب فى الجاهلية »[1] .

ومن ثم « كان العرب قبل الإسلام ينظرون إلى المشتغلين بالمهن والحرف نظرة احتقار وازدراء؛ لأنها فى عرفهم حرف وضيعة خلقت للعبيد والرقيق ولا تليق بالحر» [2]، غير أنه كان هناك مجتمع مليء بالحرفيين يملؤون أسواق مكة ، معظمهم من الطبقات الدنيا فى السلم الاجتماعى حينئذ .

« وهكذا نستطيع أن نتبين بوضوح أن مايشاع لدينا من تفضيل للأعمال والوظائف المكتبية على غيرها من الأعمال اليدوية والحرفية ، إنما هو أثر من آثار اتباعنا لمناهج الغرب السلفية الأفلاطونية فى نزعتها ونظرتها إلى الطبيعة البشرية ، وهو الأمر الذى لا يتفق مع منهج التربية الإسلامية جملة وتفصيلاً » [3] .

مكانة المهن والحرف فى الإسلام :

لقد جاء الإسلام بثورة أحدثها فى دنيا العمل والعمال « فحرر الإنسان من هذه العبودية الفكرية ، وقرر المساواة بين عمل الفلاسفة وعمل الزراعة ، ورفع من قيمة العمل أياً كان نوعه مادام حلالاً شريفاً ، لم ينص الشرع على تحريمه ولم توجد فيه شبهة » [4] .

وربما ترجع تلك الفلسفة الإسلامية الموجودة بين العمل الفكرى والعملى إلى وجهة النظر الإسلامية فى الطبيعة الإنسانية . « فالإسلام يصور الطبيعة الإنسانية على أنها تتكون من عنصرين : أحدهما مادى ، والآخر غير مادى ، والإسلام إذ يقول بعنصرين اثنين يتكون منهما الإنسان ، لا ينظر إلى طبيعة الإنسان نظرة ثنائية ينفصل فيها الروح عن الجسد بل ينظر الإسلام إليها نظرة متكاملة ويعتبر أن كلاً منهما ضرورى للآخر » [5] وهو فى تربيته للإنسان يضع فى اعتباره ضرورة توجيه العناية إلى كليهما .

«وسواء كان العمل يدوياً أم عقلياً أم فنياً فإن الخبرة والمهارة فيه مطلوبة ، فالمجتمع يحتاج إلى النجار والبناء والحداد والخياط ، كما يحتاج إلى السياسى الماهر ، والمفكر الماهر ، والمفكر المقتدر ، كما يحتاج إلى المهندس الماهر ، والطبيب الماهر ، والمعلم الماهر ، وتلك هى الفلسفة الإسلامية التى عندما كانت الأمة الإسلامية تحافظ عليها

---

(١) عيسى عبده ، أحمد إسماعيل يحيى: العمل فى الإسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ٤٢ .

(٢) عبد الرحمن النقيب : مدخل لدراسة الاتجاه الحرفى والمهنى فى التربية الإسلامية ، بحوث فى التربية الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ١١٨ .

(٣) على أحمد مدكور: منهج التربية الإسلامية ، أصوله وتطبيقاته ، الطبعة الأولى ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م ، ص ٣١١ .

(٤) عيسى عبده ، أحمد إسماعيل يحيى : العمل فى الإسلام ، مرجع سابق ، ص ٤٢ .

(٥) أبو الحسن الأشعرى : مقالات الإسلاميين واختلافات المصلين ، الطبعة الثامنة ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٩ م ، ص ٩٩ .

كانت من أعظم الأمم إنتاجاً وأعظمها خبرة وإتقاناً ، فلما انحرفت عن مفهوم العمل هذا ـ كما انحرفت عن غيره من المفاهيم ـ ضعف الإنتاج وضعفت الأمة كلها » (١) .

عدم التفضيل بين الأعمال :

إن الإسلام يدعو المسلم للإقبال على الأعمال النظرية والعملية على السواء؛ « لأنه لايعرف الفصل بين ما هو مادى وما هو روحى ، ولا يفرق بين ما هو دنيوى وما هو أخروى ، فكل نشاط مادى أو دنيوى يباشره الإنسان فهو فى نظر الإسلام عمل ، طالما كان مشروعاً وكان يتجه به إلى الله تعالى ، وليس صحيحا أن هناك صراعا بين الدين والدنيا ، وأن هناك مجالا لكل من النشاط الدنيوى والنشاط الأخروى ، فالإسلام لايعترف بهذا الفصل الميتافيزيقى بين الحاجات المادية والنظرية ، وذلك التمييز المصطنع بين الأنشطة الدنيوية أو الأخروية إلا على أساس مشروعية العمل » (٢) .

وبذلك أهدر الإسلام النظرة المتدنية إلى الأعمال اليدوية والحرفية فى الحضارات السابقة. فلم يجعل تفاضلا بين الأعمال فى ذاتها وإنما جعلها متساوية سواء منها الفكرية أو العملية . تلك الحضارات القديمة التى كانت تنازع الفرد بين حياة الدنيا وحياة الآخرة ، وتفضل الأخرى على الدنيا ، مما كان من نتائجها تفضيل العمل النظرى على العملى .

إن فلسفة الإسلام تقوم على القرآن والسنة كمصدرين أصليين ، يقول تعالى : **﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) ﴾** [القصص] .

أى « استعمل ما وهبك الله من النعمة فى طاعة ربك والتقرب إليه ، ولاتنس نصيبك من الدنيا بما أباح الله فيها من المأكل والمشرب والمساكن والمناكح » (٣) ، فإن « لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، فأعط كل ذى حق حقه » (٤) وهذه مقولة لسلمان ذكرت لرسول الله ﷺ فقال : « صدق سلمان » . وفى هذه المقولة ربط بين ضرورة العمل على قضاء حقوق الله ، وحقوق النفس ، وحقوق الأهل . أى أنه ربط بين ضروريات الدنيا والآخرة .

إن المسلم مطالب بأن يعمل فى إطار الدنيا مبتغياً وجه الله سبحانه وتعالى ، وفى

---

(١) على أحمد مدكور : منهج التربية الإسلامية ، أصوله وتطبيقاته ، مرجع سابق ، ص ٢٤٧ .

(٢) عبد السميع المصرى :مقومات العمل فى الإسلام ، الطبعة الأولى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م ، ص ١٦ ، ١٧ .

(٣) الإمام ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٣٩٩ .

(٤) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٥١ .

هذا الإطار دارت فلسفة التربية فى الإسلام « فنادت بضرورة تدريب الفرد المسلم على الاشتغال بمهنة وتزويده بمهارات مناسبة يكسب منها عيشه » (١) .

ومع أن « التربية الإسلامية قد اهتمت بالجانب الدنيوى ، والتدريب العملى إلى جانب المعرفة النظرية ، إلا أن هذا التدريب كان مرتكزا على والمبادئ الأساسية فى العلوم الدنيوية » (٢) .

إن التربية الإسلامية كانت تهدف إلى « تخريج وتشكيل (إنسان) مسلم عارف بدينه وربه يتحلى بأخلاق القرآن ويتصرف وفق قواعده ومبادئه ، فى الوقت ذاته تخريج (إنسان) فاهم للحياة قادر على أن يعيش حياة كريمة فى مجتمع حر كريم يقدر أن يعطيه ويسهم فى حركة بنائه ودفعه وتطوير الحياة فيه من خلال عمل معين يتقنه ويجيده» (٣) ، يقول البخارى: « كتبت عن ثمانين رجلا ليس فيهم إلا صاحب حديث ، كلهم يقول : الإيمان قول وعمل » (٤) ، وهذه النظرية الإسلامية لابد أن تكسب الفرد صنعة يعيش عليها فى حياته .

ومن المقولات المأثورة عن ابن تيمية قوله فى تعريف المتعلم : « من أتقن صنعة من الصنائع » (٥) ؛ ولذلك « ركزت التربية الإسلامية على إعداد كل فرد لكسب رزقه من الحياة ، بأن يتعلم بعض الحرف والفنون والصناعات ويتدرب عليها » (٦) ، ثم يشتغل بها بعد الإلمام بمبادئها وقواعدها .

علاقة العمل بالإيمان فى الإسلام :

« لم يكن الهدف من الإسلام مجرد ظهور (كتاب) يحوى بين دفتيه عدداً كثر أو قل من التعاليم والمبادئ والأفكار . وإنما كان الهدف هو إعادة صياغة الإنسان بما يتفق وما جاءت به تلك العقيدة ، وألا تظل معالم هذه الصياغة حبيسة الأوراق أوتضيع فى موجات الهواء ، وإنما تتشخص فعلا وواقعا فى سلوك إنسانى ، يفكر بمقتضاها ويتخيل ويتصور ويقيم علاقاته وفقها، فإذا قلنا هذا فإن أهم ما يترتب عليه هو أن هناك تلازما بين العقيدة الدينية وبين التربية ؛ حيث إن التربية ـ كما نعلم ـ هى تلك العملية الموجهة توجيها قائما على بصر لتحويل الأفكار والمبادئ من المستوى النظرى إلى سلوك على

---

(١) محمد كمال طه الحسينى : الاتجاه البوليتكنيكى فى التربية الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ١٣٤ .

(٢) سيد إبراهيم الجيار : دراسات فى تاريخ الفكر التربوى ، مكتبة غريب ، القاهرة ، د.ت ، ص ١٢٤ .

(٣) عبد الغنى عبود : فى التربية الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ١١٨ .

(٤) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ٨ .

(٥) محمود السيد سلطان : قضايا فى الفكر التربوى الإسلامى ، دار الحسام للنشر والطباعة والتوزيع ، مدينة نصر ، القاهرة ، ١٩٨٠ ـ ١٩٨١ ، ص ١٦٦ .

(٦) محمد عطية الإبراشى : التربية الإسلامية وفلاسفتها ، الطبعة الثالثة ، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر ، ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م ، ص ٢٤ .

المستوى الفعلى » [1] ، فالعقيدة الإسلامية تدعو إلى العمل والحركة والبناء والتعمير ، إنها تدعو المسلم إلى أن يكون سلوكه إيجابيا لاسلبيا ؛ مما يعود عليه وعلى المجتمع بالخير والنفع .

إن « الإيمان الصادق ليس مجرد إدراك أو تصديق قلبى غير متبوع بأثر عملى فى الحياة ، بل إنه اعتقاد وعمل وإخلاص » [2] . قال تعالى : ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا** (١٢٤) ﴾ [النساء] . وفى ذلك يبين الله تعالى « أن الأعمال الحسنة لاتقبل من غير إيمان ، كما أنهم يدخلون الجنة بأعمالهم » [3] .

إن الإسلام يهدينا إلى الإيمان والعمل فى وقت واحد وفى هذا يقول تعالى: ﴿ **فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ** (٧) ﴾ [الشرح] .

« أى إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها فانصب إلى العبادة ، وإذا فرغت من أمور العبادة فانصب إلى العمل والاجتهاد فى أمور الدنيا » [4] ، فيطلب الانتقال من العمل لأداء العبادة ، كما يطلب مباشرة العمل بعد انقضائها . كما تحث الآية على الجدية فى العمل الدائم حتى يصل الإنسان إلى إجهاد حقيقى ثم يأنس إلى الراحة الموقوته لتفريغ شحنة التعب ، ثم العودة إلى العمل الناصب مرة أخرى وهكذا .

فالمسلم إذاً عامل باستمرار لايبارح العمل إلا لتفريغ شحنة التعب لمواصلة العمل (المتقن) من جديد ، ويتأكد هذا المعنى من قوله تعالى : ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ** (٢) ﴾ [الملك] .

نحن فى عهد كثير الأعباء على الدولة وعلى الأفراد ، ولانستطيع أن ننهض بمسئولياتنا فيه إلا بالتركيز على معانى الإيمان والعمل ، ويقرر الإسلام « أن حياة الإيمان بدون عمل هى عقيم كحياة شجر بلا ثمر ، فهى تثير المقت الكبير لدى واهب الحياة الذى يريدها خصبة منتجة كثيرة الثمرات » [5] .

يقول تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ** (٢) **كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن**

---

(١) سعيد إسماعيل على : العمل فى الفكر التربوى الإسلامى دراسات فى التربية الإسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٢م ، ص ٤ .

(٢) يوسف القرضاوى : الإيمان والحياة ، الطبعة التاسعة ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م . ص ٢٩٣ .

(٣) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن مرجع سابق ، ج٥ ، ص ٣٩٩ .

(٤) الإمام ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، مرجع سابق ، ج ٤، ص ٢٥٦ .

(٥) عبد المنعم خلاف: المادية الإسلامية وأبعادها ،الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣ ،ص ١٦١ .

﴿ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣) ﴾ [الصف] وقد « ذكر القرآن الكريم الإيمان مقرونا بالعمل ولم يكتف بمجرد العمل ولكنه يطلب عمل الصالحات ، وهى كلمة جامعة من جوامع القرآن ، تشمل كل ماتصلح به الدنيا والدين ، ومايصلح به الفرد والمجتمع ، وما تصلح به الحياة الروحية والمادية معا » (١) .

أى أن الإسلام لايعرف المؤمن إلا كادحاً عاملا مؤديا دوره فى الحياة ، آخذاً منها معطيا لها ، مستجيبا لما أراده الله من بنى آدم حين جعلهم خلفاء الأرض . وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾ [النحل] ، وهكذا «يقدر الإسلام العمل حق قدره ويحترمه ويعظمه»(٢)، «ويرفع من شأنه ويمنح العمل قداسة ترفعه وترفع العمال »(٣) .

إن المكانة التى جعلها الإسلام للعمل الحرفى والمهنى فى مجالات الحياة تتضح بصورة أكبر فى الفكر الإسلامى من خلال العناصر التالية :

الحث على العمل والتشجيع عليه فى القرآن الكريم :

لقد « حمل الإسلام مبادئ إنسانية سامية فى قيمة العمل ، وقرر أنه ليس للإنسان إلا ماسعى ، وأن كل ميزة يحصل عليها الفرد إنما تقاس بما يقدمه من عمل صالح لربه ونافع لنفسه ومجتمعه » (٤) .

قال تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ﴾ [النجم] أى « لايحصل من الأجر إلا ماكسب هو لنفسه » (٥) ، وهذا أمر الله لعباده فى الأرض أنزله فى قرآنه العظيم ؛ ليعملوا ويسعوا فى الأرض ويسيروا فى أرجائها ليعمروها ويستخرجوا منها أرزاقهم .

إن العمل والسعى أقوى مراتب العبادة فى الإسلام ، ولو لم يكن للعمل الحلال قدسيته لما قرن العمل بالصلاة ولما أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالسعى والممارسة الفعلية عقب الصلاة ،وقرن بها ذكره ، وعلق عليها رجاء الخير والفلاح ، فقال تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ

---

(١) يوسف القرضاوى : الإيمان والحياة ، مرجع سابق ، ص ٢٩٤ .

(٢) محمد حسنى السيد : العمل فى السلام ، الكتاب رقم (١٢) ، من مجلة العمل ، دار مطابع الشعب ، القاهرة ، فبراير ١٩٦٥، ص ٩ .

(٣) سيد قطب : السلام العالمى والإسلام ، الطبعة السابقة ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م ، ص ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٤) شوقى عبده الساهى : المال وطرق استثماره فى الإسلام ، الطبعة الثانية ، مطبعة حسان ، القاهرة ، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م ص ٧٠ ، ٧١ .

(٥) الإمام ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ٢٥٨ .

تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة] .

أى « إذا فرغتم من الصلاة فانتشروا فى الأرض للتجارة وللتصرف فى جوائجكم وابتغوا من رزق الله » (١)، وهذا التفسير لتلك الآية يلتقى مع تفسير قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) ﴾ [الشرح] .

مواسم للعمل :

إن معظم تجارة العرب الداخلية تقوم على المواسم والأعياد ، والعرب فى ذلك مثل العبرانيين الذين كانت تقوم تجارتهم على المواسم والأعياد ، كذلك وقد رتبت أوقات الأسواق مع الأشهر الحرم ، حتى يسودها الهدوء والسلام وهما من طبيعة التجارة . وقد كان الحج من أكبر مواسم الربح لقريش ؛ تبيع قريش ما عندها للأعراب القادمين إليها من البادية ولأهل القرى البعيدة عن مكة ، وتشترى منهم ما يحملونه معهم من مواد وسلع ، ثم تقوم قوافلهم بنقل الفائض مما اشترته إلى الأسواق الخارجية فى بلاد الشام أو العراق ، وتشترى فى مقابل ذلك مايحتاج إليه الحجاز وأعراب البادية من سلع ومواد . والسوق المحلية الذى يتسوق منه إما ثابتة مع أيام السنة ، يبيع فيها البائع ويقصدها المشترى للشراء ، وإما موسمية تعقد فى مواسم معينة ، فإذا انتهى الموسم رفعت (٢) .

ولقد أذن الله بالتجارة فى مواسم الحج « فقد كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقا فى الجاهلية فتأثموا أن يتجروا فى مواسم الحج » (٣) فنزلت الآية : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ﴾ [البقرة] . « أى لاحرج عليكم فى الشراء والبيع فى الحج ، وهل كانت معايشهم إلا فى الحج » (٤) .

بل إن الحج إنما فرض لينتفع الناس بالتجارة كما ينتفعون بالعبادة وباجتماعهم فى صعيد واحد ، وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ﴾ [الحج] « والمنافع : دنيوية ، وأخروية : أما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى ، وأما منافع الدنيا فما

---

(١) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ١٨ ، ص ١٠٨ .
(٢) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام ، مرجع سابق ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ .
(٣) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .
(٤) الإمام ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ٢٤٠ .

يصيبون من منافع البدن والذبائح والتجارات » (١) .

العلاقة بين العمل والعبادة والراحة :

لقد خفف الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن رسوله ﷺ ومن اقتدى به من المسلمين أعباء قيام الليل لأسباب ، منها : ألا يرهق التعبد البعض ليلا فيقعدهم عن طلب الرزق نهارا .

وفى هذا يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴿٢٠﴾ ﴾ [المزمل] ، أى « علم أن سيكون من هذه الأمة ذووا أعذار فى ترك قيام الليل من : مرضى لايستطيعون ذلك ، ومسافرين فى الأرض يبتغون من فضل الله من المكاسب والمتاجر ، وآخرين مشغولين بالغزو فى سبيل الله » (٢) .

إن الله قد جعل الضرب فى الأرض طلبا للرزق من أسباب التخفيف فى العبادة ، مثله فى ذلك كمثل المرض ، كما أشارت الآية السابقة ، كما نعى الله ـ سبحانه وتعالى ـ على الذين تركوا الدنيا وانقطعوا لإقامة الصلوات فى قوله تعالى : ﴿ **وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحديد] والمعنى أنهم « ابتدعوا عبادة من قبل أنفسهم فحملوا أنفسهم من المشقات من الامتناع عن المطعم والمشرب والنكاح والتعلق بالكهوف والصوامع ، وما فرضناها ولاأمرناهم بها ولكنهم ابتدعوها » (٣) .

وإذا كان « كل من فى الوجود يعمل ، من أعظم الأجرام السماوية التى لاتتوقف لحظة عن الدوران فى أفلاكها إلى النملة التى لايسمع دبيبها على الأرض إلى مكونات الذرة ؛ فإن الإنسان لايستطيع أن يخرج على نواميس الكون والحياة ، فيعيش بلا حرفة أو مهنة ، وإلا لفظته الحياة ، ونبذه المجتمع ، وتحطم كيانه ، وفقد معنى وجوده » (٤) .

---

(١) الإمام ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص ٢١٦ .

(٢) الإمام ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ٤٣٩ .

(٣) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ١٧ ، ص ٢٦٥ .

(٤) محمد كامل حته : القيم الدينية والمجتمع ، سلسلة اقرأ ، (٣٨٦) ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٤ م ، ص ٨١ .

إن التربية الإسلامية ترى « أن مدلول العبادة لابد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر ، فالجن والإنس لايقضون حياتهم فى إقامة الشعائر ، والله لايكلفهم هذا ، وهو يكلفهم ألوانا أخرى من النشاط ، تستغرق معظم حياتهم والخلافة فى الأرض عمل الكائن الإنسانى ، وهى تقتضى ألوانا من النشاط الحيوى فى عمارة الأرض والتعرف على قواها وطاقاتها وذخائرها ومكنوناتها ، وتحقق إدارة الله فى استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها » (١) .

وهذا هو القصد من الآية الكريمة : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذاريات] فالإسلام يربط بين العمل فى المصنع والمزرعة ومجالات الإنتاج والخدمات من جانب وبين العبادة من جانب آخر ، ويجعل حياة الإنسان مترددة بين العمل والعبادة (٢) .

إن الله جل شأنه « حين خلق الأرض بارك فيها وقدر فيها أقواتها ، وأودع فى بطنها وعلى ظهرها من البركات المنظورة والخيرات المنثورة ما يعيش به عباد الله فى رغد من العيش » (٣) .

كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (١٠) ﴾ [الأعراف] . أى « مكاسب وأسبابا تكسبون بها وتتجرون فيها » (٤) . «والمعايش : جمع معيشة ، والتعيش : تكلف أسباب المعيشة » (٥) « ومعيشة أى ما يتعيش به من المطعم والمشرب وما تكون به الحياة » (٦) .

لقد خلق الله الناس فى هذه الأرض ليعمروها حيث قضت سنة الله ذلك ، وجعل الله الإنسان خليفة له فى الأرض ليعمل فيها ، قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) ﴾ [هود] ،« أى جعلكم عمارا تعمرونها وتستغلونها » (٧) « وفيه الدلالة على وجوب الإسكان والعمران » (٨) ، وذلك « يتطلب الزراعة والغرس والأبنية » (٩) . فالدين لم يجعل عمارة الأرض من النوافل أو المندوبات

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨١ ، المجلد السادس ، ص ٣٣٨٨ .
(٢) ناصر على بشيه : التربية الإسلامية والتحديات فى المجال التقنى ، مرجع سابق ، ص ١٤٦ .
(٣) يوسف القرضاوى : مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام ، مرجع سابق ، ص ٣٦ ، ٣٧ .
(٤) الإمام ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ٢٠٢ .
(٥) محمد بن أبى بكر الرازى : مختار الصحاح ، مرجع سابق ، ص ٤٦٥ .
(٦) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ٧ ، ص ١٦٧ .
(٧) الإمام ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ٤٥٠ .
(٨) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ٩ ، ص ٥٧ .
(٩) المرجع السابق ، ج ٩ ، ص ٥٦ .

بل جعلها من الشعائر الواجبة التى يثاب فاعلها ويعاقب تاركها .

ولقد اقتضت سنة الله فى الخلق أن هذه الأرزاق التى ضمنها، والأقوات التى قدرها ، والمعايش التى يسرها لاتنال إلا بجهد يبذل ، وعمل يؤدى . قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك] ، « أى فسافروا حيث شئتم من أقطارها وترددوا فى أقاليمها وأرجائها فى أنواع المكاسب والتجارات » (١).

وفى هذا دعوة إلى النفرة فى سبيل العمل ، والاجتهاد فى تحصيل الرزق ، « فمن مشى أكل، ومن كان قادرا على المشى ولم يمش كان جديراً ألا يأكل » (٢) ،قال تعالى : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم] .

استدل العلماء من هذه الآية على « أن الرزق ولو كان مكتوبا فإن الله ـ تعالى ـ أوجب على ابن آدم السعى ؛ لأنه أمر مريم بهز النخلة لترى آية . والأمر بتكليف الكسب فى الرزق سنة الله ـ تعالى ـ فى عباده ، وإن ذلك لاينتقص من المتوكل خلافا لما يقوله جهال المتزهدة » (٣) .

الحث على العمل فى السنة النبوية :

لقد حثت السنة النبوية الشريفة المسلم على أن يكسب قوته بكد يديه ،وذلك ابتغاء فضل الله فيما يسره له من وسائل الكسب المشروعة. عن حكيم بن حزام قال: سألت النبى ﷺ فأعطانى ثم سألته فأعطانى، ثم سألته فأعطانى، ثم قال لى : « يا حكيم ، إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذى يأكل ولايشبع واليد العليا خير من اليد السفلى » (٤).

وفى الوقت الذى كان ينهى رسول الله ﷺ عن السؤال والقعود ويحض على العمل والحركة كان يمنع الزكاة عن الأقوياء القادرين على الكسب ، ويحث على الاستغناء والاستعفاف، ويمدح المعطى «اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول ، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ، ومن يستعفف يعفه الله » (٥) و« اليد العليا المنفقة والسفلى السائلة » (٦) .

---

(١) الإمام ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، مرجع سابق ، ج٤، ص ٣٩٧ .

(٢) يوسف القرضاوى : مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام ، مرجع سابق ، ص ٣٨ .

(٣) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ١١ ، ص ٩٥ .

(٤) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٨ ، ص ١١٦ .

(٥) المرجع السابق ، ج٢ ، ص ١٣٩ .

(٦) الإمام مسلم (أبو الحسن بن الحجاج القشيرى النيسابورى) : صحيح مسلم ، دار الجيل ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت د ، ت ، المجلد الثالث ، ص ٩٤ .

ولايتصور عاقلٌ أمةً تنهض وتتقدم إن لم يعمل أبناؤها ، ولا يعرف التاريخ أمة تكرم صاحب المهنة أو الحرفة وترفع من قدره ، كما هو الحال فى الأمة الإسلامية . عن النبى ﷺ قال : « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » (١) .

وفى الحديث فضل العمل باليد وتقديم ما يباشره الشخص بنفسه على ما يباشره بغيره ، والحكمة فى تخصيص داود بالذكر أن اقتصاره فى أكله على ما يعمله بيده لم يكن عن حاجة ؛ لأنه كان خليفة فى الأرض ، كما قال تعالى ، وإنما ابتغى الأكل عن طريق الأفضل ؛ ولهذا أورد النبى ﷺ قصته فى مقام الاحتجاج بها على ما قدمه من أن خير الكسب عمل اليد (٢) .

إنها الحرف البسيطة التى لايترفع عنها صاحبها ، وما أحوج مجتمعنا اليوم إلى تلك التربية التى تغرس فى النفوس حب العمل اليدوى والعمل فى الحرف والمهن المختلفة وعدم احتقارها وتشجيع الإبداع فيها والإقبال على تعلم المهن المختلفة ، دون ترفع أو استعلاء (٣) ، حتى ولو كان العمل بحرفة الاحتطاب لقول النبى ﷺ : « لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحدا فيعطيه أو يمنعه » (٤) . إن الحرفة مهما كانت بسيطة ومتواضعة ترفع قدر الإنسان ، وتحفظ عليه كرامته من ذل المسألة ؛ لذا يضرب النبى ﷺ مثلا بهذه الحرفة المتواضعة ، وهى الاحتطاب ؛ لتكون نموذجا أمام المسلم تدفعه للعمل بمهنة أو حرفة ، وكم نفّر النبى ﷺ من المسألة فقال : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس فى وجهه مزعة لحم » (٥) ، والمزعة : القطعة ، قيل معناه : يأتى يوم القيامة ذليلا ساقطا لا وجه له عند الله (٦) .

إنها صورة مهينة لمن يتعود سؤال الناس ؛ ولذلك نهى الرسول ﷺ عن السؤال والاستجداء وطلب من المعدم أن يستخدم ساعده وطاقته فى اكتساب عيشه ودفعه إلى ترك العجز والاستكانة.

على الإنسان إذن أن « يعمل على ظهر الأرض فيغرس ويزرع ويعمر ، وعليه أن يعمل فى باطن الأرض ليستخرج كنوزها المدفونة من المعادن والبترول ؛ وبذلك ينال نصيبه فى الحياة ويأخذ دوره فى هذا الوجود ، أما البطالة والتقاعد عن الاشتغال بحرفة

---

(١) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٧٤ ، (كتاب البيوع) .

(٢) ابن حجر العسقلانى : فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، الطبعة الأولى ، دار الريان للتراث القاهرة ، المجلد الرابع ، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٦م ، ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(٣) فوقية محمد ياقوت شهبة : القيم التربوية للتنمية فى الحديث الشريف ، مرجع سابق ، ص ١١٠ .

(٤) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٧٥ (كتاب البيوع) .

(٥) الإمام مسلم: صحيح مسلم ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص ٩٦ .

(٦) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص ٣٤٦ .

لَمُخَالفة صريحة لطبيعة الحياة وسنة الوجود » (١) .

ولكى يكسب الإنسان معاشه فهو فى حاجة إلى العمل فى دنياه وإلى التفكير فى الآخرة ؛ ولذلك فالإنسان يعمل لدنياه ودينه ، « وسيرة الرسول ﷺ تشهد بذلك ؛ فهو إلى جانب التعمق فى العبادة كان يقوم برعى الغنم ويعمل بالتجارة وكذلك الصحابة » (٢) .

والإسلام يؤكد على أهمية المحاكاة للقدوة الصالحة تأكيدا قويا ، وهو يدعو المسلمين لأن يدرسوا سيرة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيتخذونها قدوة لهم قال تعالى : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** (٢١) ﴾ [الأحزاب] ، والأسوة ما يتأسى به ، فيقتدى به فى جميع أفعاله وأحواله (٣) . وإذا نظرنا إلى رسول الله ﷺ وجدنا حياته كلها جهادا وعملا فكان يخصف نعله ويرقع ثوبه ، ويحلب شاته ، وهو القائل : « صاحب الشىء أولى بحمله » (٤) . ولقد « سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها ، ما كان النبى ﷺ يصنع فى أهله ؟ قالت : كان فى مِهْنة أهله ، فإذا حضرت الصلاة ، قام إلى الصلاة » (٥) .

كما كان يحرص ﷺ على أن يشارك بنفسه فى الأعمال والحرف والمهن التى كان يقوم بها أصحابه من ذلك :حفر الخندق فى غزوة الأحزاب.« عن سهل بن سعد قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى الخندق وهم يحفرون ونحن ننقل التراب على أكتادنا » (٦) وقوله:(ونحن ننقل التراب على أكتادنا) «جمع كتد وهو ما بين الكاهل إلى الظهر» (٧) ويرغب رسول الله ﷺ فى العمل فيذكر : « على كل مسلم صدقة » ، قالوا : فإن لم يجد ؟ قال : « يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق » (٨) ، وفى رواية أخرى يقول ﷺ : « على كل مسلم صدقة »، قالوا : يا نبى الله فإن لم يجد ؟ قال : « يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق » ، قالوا : فإن لم يجد ؟ قال : « يعين ذا الحاجة الملهوف » ، قالوا: فإن لم يجد ؟ قال: « فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر فإنها له صدقة » (٩) ، وكان صلوات الله وسلامه عليه يحض على العمل الدائم،« عن عائشة أنها قالت: كان

---

(١) عيسى عبده ، أحمد إسماعيل يحيى : العمل فى الإسلام ، مرجع سابق ، ص ٤١ .

(٢) أحمد فؤاد الأهوانى : التربية فى الإسلام ، مرجع سابق ، ص ٩٢ .

(٣) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج١٤ ، ص ١٥٥ .

(٤) محمد كمال طه الحسينى : الاتجاه البوليتكنيكى فى التربية الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ١٣٠ .

(٥) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٨ ، ص ١٧ (كتاب الأدب) .

(٦) المرجع السابق ، ج٥ ، ص ١٣٧ .

(٧) ابن حجر العسقلانى : فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج٧ ، ص ٤٥٥ .

(٨) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٨ ، ص ١٣ (كتاب الأدب) .

(٩) المرجع السابق ، ج٢ ، ص ١٤٣ .

أحب العمل إلى رسول الله ﷺ الذى يدوم عليه صاحبه » (١) .

« لقد كان النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أشد الناس حرصا على تأكيد قيمة العمل الحرفى والمهنى فى نفوس أتباعه وتثبيت معنى أن السعى فى الرزق عن طريق ذلك إنما هو جهاد فى سبيل الله » (٢) .

فيقول ﷺ: « الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله » (٣) ، فوضع العامل بالحرف والمهن موضع المجاهد فى سبيل الله .

إن من يتتبع أحاديث النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ القولية وسنته العملية ، يشهد بأن للعمل اليدوى مكانة عظيمة ، ولو كان هذا العمل حرفة يزدرى المجتمع أصحابها أحيانا ، ففى الأثر : أن الخدم ربما كانوا يقصدون النبى ﷺ نفسه ليعينهم على شراء ما كلفوا بشرائه من السوق ، فكان يذهب معهم ويقضى لهم مايشاءون (٤) ، وأن أعداءه ﷺ كانوا يعيبون عليه أن الأساكفة والحَوكَة من أنصاره ﴿ **قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١)** ﴾ [الشعراء] ،وقال تعالى فى موضع أخر : ﴿ **فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧)** ﴾ [هود] . أراذلنا : خسيسوا الصناعات . وقيل : إنهم كانوا حاكة وحجامين ، وقيل : الدباغ والكناس إن كان من غير العرب ، وكان هذا جهلا منهم ؛ لأنهم عابوا النبى ﷺ بما لا عيب فيه (٥) .

الإسلام والزراعة :

حث الإسلام على الزراعة عن طريق إحياء الأرض الميتة ، وهو ما ينادى به الفكر الاقتصادى المعاصر فيما يعرف بالتوسع الأفقى عن طريق زيادة رقعة الأرض المنزرعة واستصلاح الأراضى وغزو الصحراء ، ومفهوم العمل فى الإسلام واسع وشامل لكل ضروب الحركة والإنتاج فكريا كان أو ماديا .

إن الإسلام يحض على العمل فى الزراعة فى قوله تعالى : ﴿ **لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥)** ﴾ [يس] .

---

(١) المرجع السابق ، ج ٨ ، ص ١٢٢ .

(٢) عبد الرحمن النقيب : مدخل لدراسة الاتجاه الحرفى والمهنى فى التربية الإسلامية ، بحوث فى التربية الإسلامية ،مرجع سابق ، ص ١١٩ .

(٣) الإمام مسلم: صحيح مسلم ، مرجع سابق ، ج ٨ ، ص ٢٢١ .

(٤) محمد شوقى الفنجرى : نحو اقتصاد إسلامى ، الطبعة الأولى ، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع ، جدة ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م ، ص ٨٧ .

(٥) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ٩ ، ص ٢٣، ٢٤ .

أى « ليأكلوا مما غرسوه من زرع وثمار ونبات » [1] ونخيل وغير ذلك . ويبدو هنا اهتمام الإسلام بالزراعة وحثه عليها .

فالزرع هو الغلة الطبيعية للأرض التى أمر الإنسان بعمارتها وإصلاحها ومنع الفساد عنها ، وفى الكسب بالزرع يتوكل على الله بعد الحرث والرى وبذر الحب فى التراب .

« والإسلام يحفز الزارع فيجعل من يحيى أرضا لاتنتج زرعا مالكا لهذه الأرض التى أحيا مواتها ، ويشترط لاعتبار الأرض مواتا ألا يكون منتفعا بها فعلا بطرق أخرى من طرق الانتفاع غير الزرع .

وإحياء الأرض الموات معناه : جعلها صالحة للزراعة بإزالة السبب الذى جعلها غير صالحة ، فإن كان مواتها بسبب غمر الماء بها فإحياؤها بإقامة السدود ، وإن كان بسبب قلة الماء أو عدم انتظامها فإحياؤها بإجراء الماء لها ،وحفر الآبار ووضع الآلات الرافعة ، وإن كانت غير مستوية سويت ، وإن كانت الأرض غير طيبة بأن كانت لاتنبت زرعا فإحياؤها بتسميدها وإضافة المواد التى تخصبها وهكذا » [2] .

ولذلك قال النبى ﷺ : « من أعمر أرضا ليست لأحد فهو أحق » [3] ، والأرض الميتة كما يقول ابن حجر : « هى الأرض التى لم تعمر ، وإحياء الموات بأن يعمد الشخص إلى الأرض لايعلم تقدم ملك عليها لأحد فيحييها بالسقى أو بالزرع أو الغرس أو البناء ، فتصير ملكه سواء كانت فيما قرب من العمران أم بعد » [4] . إنها دعوة إلى زيادة الرقعة الزراعية وإلى الحث على الزرع .

«وإذا كان إحياء الأرض عن طريق زراعتها والعناية بها عملا مهماً من أعمال التنمية، فإن هذه النظرة يجب أن تمتد إلى ما تنتجه الأرض من زرع وغرس وثمر ؛ فلا يعمد الزارع إليه قبل تمام نضجه فيقطعه ؛ لأن ذلك يقلل من قيمته » [5] ، ففى الحديث « أن النبى ﷺ نهى عن بيع الثمار حتى يبدو صلاحها ، نهى البائع والمبتاع » [6] ، « وإن فى هذا المنع لمنفعة لكل من البائع والمشترى ، وإذا تم البيع قبل تمام النضج فالضرر على الطرفين. فأما البائع فلئلا يأكل مال أخيه بالباطل ،وأما المشترى فلئلا يضيع ماله » [7] . « وعلى المستوى العام فى المجتمع الزراعى الذى يتبع هذا الأسلوب سوف تكون النتيجة

---

(١) الإمام ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص ٥٧١ .

(٢) عيسى عبده ، أحمد إسماعيل يحيى: الملكية فى الإسلام ، دار المعارف ،القاهرة ، ١٩٨٤م ، ص ١٦٩ .

(٣) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ١٤٠ .

(٤) ابن حجر العسقلانى : فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج٥ ، ص ٢٣ .

(٥) فوقية محمد ياقوت شهبة : القيم التربوية للتنمية فى الحديث الشريف ، مرجع سابق ، ص ١٢٠ .

(٦) ابن حجر العسقلانى : فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج٤، ص ٢٧٠ .

(٧) المرجع السابق والصفحة .

إهداراً لمورد اقتصادى أساسى كان يمكن أن يصل أقصى قيمة من الفائدة ومن الثمن إذا انتظر صاحبه تمام نضجه » (١) .

وعناية الإسلام بالزراعة تبدو من دعوة الرسول إلى الغرس والزرع ، واعتبار هذا العمل الذى ينفع الناس فى الدنيا سببا فى ثواب الله ، ففى الحديث : « ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهمية إلا كان له به صدقة » (٢)، ودعوة الرسول إلى الغرس والزرع إنما تتضمن دعوة إلى الرخاء .

وقد « رفع الإسلام من شأن الزراعة والمزارعين ووعدهم بأحسن الثواب ليقبل الناس عليها إقبالاً لايدع من الأرض الصالحة للزراعة شبرا دون زراعة »(٣)، قال تعالى : ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** (٢٦١) ﴾ [البقرة] يقول الإمام القرطبى فى تفسير هذه الآية الكريمة : « فى هذه الآية الكريمة دليل على أن إثمار الزرع من أعلى الحرف التى يتخذها الناس والمكاسب التى يشتغل بها العمال؛ولذلك ضرب الله به المثل » (٤).

ويوجهنا الإسلام إلى حرفة الزراعة ممتنا على الإنسان بتيسيرها له فيقول تعالى : ﴿ **يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** (١١) ﴾ [النحل] ، أى « يخرج لكم من الأرض الزرع والزيتون والنخيل والأعناب والثمرات بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها » (٥) . ويقول القرآن الكريم : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ** (٢٦٧) ﴾ [البقرة] ، وقوله: ﴿ **وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ** ﴾ يعنى النبات والركاز والمعادن ، والركاز أصله فى اللغة ما ارتكز بالأرض من الذهب والفضة والجواهر (٦) . وقال السدى : « يعنى الذهب والفضة ، ومن الثمار والزروع التى أنبتها لهم من الأرض » (٧). إنها ليست دعوة إلى الزراعة فقط ، إنها دعوة إلى الاشتغال بحرف ومهن متعددة ، دعوة إلى الزراعة وإلى الصناعة وإلى التجارة .

---

(١) فوقية محمد ياقوت شهبة : القيم التربوية للتنمية فى الحديث الشريف ، مرجع سابق ، ص ١٢٠ .

(٢) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ١٣٥ .

(٣) حمزة الجميعى الدموهى : عوامل الإنتاج فى الاقتصاد الإسلامى ، الطبعة الأولى ، دار الطباعة والنشر الإسلامية ، ١٩٨٥ م ، ص ٦١ .

(٤) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص٣٠٥ .

(٥) الإمام ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٥٦٤ .

(٦) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص٣٢١ ، ٣٢٢ .

(٧) الإمام ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٣٢٠ .

إن الحق سبحانه وتعالى فى الآية « سمى حصيلة المال الذى هو ثمرة النشاط (كسباً) ، وأضاف الكسب إلى البشر فى قوله: ﴿ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ إشارة إلى أن الأموال تابعة لمجهودهم الخاص وهى فى أيديهم ملك لهم » (١) ، وإن سعى الإنسان ومجهوده للحصول على ما فى الأرض مرهون بإرادة الله وقدرته ؛ لأن الآية زاوجت بين سعى الإنسان فيما أسمته (كسبا) وبين إرادة الله فيما عبرت عنه بقوله : ﴿ أَخْرَجْنَا لَكُم ﴾ .

« وهذا أمر معقول فى دين كالإسلام يدعو إلى اعتناق مذهب وحدة الحياة وامتدادها إلى الأبد بعد الموت فى الدار الآخرة » (٢) .

إن الزراعة فى مجتمعنا تعد دعامة أساسية من دعائم التنمية ؛ إذ مع توفير مياه الرى وإمكانية استصلاح مساحات واسعة من الأرض يمكن زيادة رقعة الأرض المزروعة فى بلادنا حتى لا تخضع ـ تحت حاجتها للغذاء ـ للاعتماد على الاستيراد من الخارج ، فى حين « تلجأ بعض الدول المتقدمة إلى حرق أو إغراق الفائض من زراعتها للمحافظة على مستوى أسعارها الفاحشة » (٣) .

الإسلام والتجارة :

خلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ الناس على حالة يحتاج فيها بعضهم إلى بعض ، فليس الفرد يملك كال ما يحتاج إليه ، بل يملك هذا ما يستغنى عنه ذاك ، والعكس ، ويحتاج إلى بعض ما يستغنى عنه الآخرون ، ومن ثم ألهم الله الخلق أن يتبادلوا السلع والمنافع بالبيع والشراء ، وسائر المعاملات حتى تستقيم الحياة (٤) ، وقد كانت التجارة منتشرة فى الجزيرة العربية قبل الإسلام وقد نشطت على أيدى المسلمين .

وحث النبى ﷺ على التجارة مرغبا فيها ، وكان لا يألوا جهدا ولايدخر نصحا فى دفع المسلمين للعمل بالتجارة باعتبارهم أفرادا وجماعات ، حتى إنه حين « هاجر من مكة إلى المدينة وهاجر معه أصحابه عملا بتعاليم دينهم ، كان أول شىء وقع عليه نظره هو بناء المسجد الذى شارك فى بنائه بيديه الشريفتين ؛ لأنه مكان العبادة ، ثم رأى رسول الله ﷺ واجباً عليه أن ينشئ سوقاً للمسلمين تكفل حرية العمل التجارى ، وتضمن سريان قانون التنافس ؛ حتى يكون البقاء للأصلح » (٥) .

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ

---

(١) عبد السميع المصرى : مقومات العمل فى الإسلام ، مرجع سابق ، ص ٢٢ . نقلها من : محمد البهى : الفكر الإسلامى والمجتمع المعاصر ، ١٩٦٥ ، ص ٤٠ ، ٤١ .

(٢) عبد المنعم محمد خلاف : المادية الإسلامية وأبعادها ، مرجع سابق ، ص ١٦٣ .

(٣) حمزة الجميعى الدموهى : عوامل الإنتاج فى الاقتصاد الإسلامى ، مرجع سابق ، ص ٦٤ .

(٤) زيدان عبد الباقى : العمل والعمال والمهن فى الإسلام ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٨٧ م ، ص٣٨ .

(٥) عيسى عبده ، أحمد إسماعيل يحيى : العمل فى الإسلام ، مرجع سابق ، ص ٩٩ .

الأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد] أى : « أن الباطل يذهب كما يذهب الزبد الذى يعلو الماء ، وأما ماينفع الناس مثل الماء وما خلص من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص فيمكث فى الأرض » (١) ؛ولذا ضرب رسول الله ﷺ (قبة) ليقوم حولها الناس بالبيع والشراء ،وقامت السوق قوية منتظمة ، وأخذت كل سلعة مكانا ، فكان للخيل مكانا ، وللإبل غيره ،وللغنم سواه ،وكل عرض من عروض التجارة له مكانه الخاص به (٢) .

وقياسا على ذلك جرت النظم فى العهد الإسلامى الأول على تخطيط المدن على أساس إنشاء أحياء خاصة بالصناعات المختلفة ، فكان من توجيهات نظام الحسبة الإسلامية أن يجعل المحتسب لأهل كل صنعة سوقا تختص بهم،وتعرض صنائعهم فيه ؛ فإن ذلك لقصادهم أرفق ، ولصنائعهم أنفق ، ومن كانت صناعته تحتاج إلى وقود نار ، كالخباز والطباخ والحداد ، فالمستحب أن تبعد حوانيتهم عن العطارين والبزازين لعدم المجانسة بينهم وحصول الأضرار (٣) .

وكانت التجارة عمل النبى ﷺ كما يقول القرطبى : « كانت تجارة ذوى الأخطار ؛ لأنها كانت تجارة بين الأقطار » (٤) ، وهى أخطر من التجارة التى تتم داخل البلدة الواحدة، فالرسول ﷺ أسوتنا ، عاش طول عمره عاملا مجدا ، سافرخارج مكة أجيراً وشريكا فى تجارة ، ومشى فى الأسواق واشترى ، تقول عائشة رضي الله عنها : « إن النبى ﷺ اشترى طعاما من يهودى إلى أجل ورهنه درعا من حديد » (٥) ، وكان يعيب عليه المشركون ذلك : ﴿ **وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً** ﴿٧﴾ ﴾ [الفرقان] .

وتدل الآية على أن دخول الأسواق مباح للتجارة وطلب المعاش ، وكان عليه الصلاة والسلام يدخلها لحاجته ولتذكرة الخلق بأمر الله ودعوته ، وفى البخارى:« ليس بفظ ولاغليظ ولاسخّاب فى الأسواق » (٦) .

« يقول ابن عباس رضي الله عنهما : لما عير المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة وقالوا : (مال هذا الرسول يأكل الطعام) ،حزن النبى ﷺ فنزلت الآية تعزية له » (٧) ،ونزلت أيضاً : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ**

(١) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ٩، ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ .
(٢) عيسى عبده ، أحمد إسماعيل يحيى : العمل فى الإسلام ، مرجع سابق ، ص ٩٩ ، ١٠٠ .
(٣) عبد الرحمن بن نصر الشيزارى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، تحقيق السيد الباز العرينى ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨١ م ، ص ١١ ، ١٢ .
(٤) عيسى عبده ، أحمد إسماعيل يحيى : الملكية فى الإسلام ، مرجع سابق ، ص ١٧٤ .
(٥) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٧٤ . (كتاب البيوع) .
(٦) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ،ج ٣ ، ص ٨٧ . (انظر: القرطبى ، ج ١٣ ، ص ٥).
(٧) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج١٣، ص١٣ .

لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفرقان] ، أى : أن التجارة كانت عمل الرسل من قبل بعثة رسول الله ﷺ بدين الإسلام . « وهذه الآية أصل فى تناول الأسباب وطلب المعاش بالتجارة والصناعة وغير ذلك ، وقيل فى معنى الآية : يتجرون ويحترفون » (١) ؛ ولذلك أنزل الله تعالى قوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الأنبياء] ، «والضمير فى جعلناهم للأنبياء أى: لم نجعل الرسل قبلك خارجين عن طباع البشر لايحتاجون إلى طعام وشراب وما كانوا لايموتون، وهذا جواب أيضا لقولهم : (مال هذا الرسول يأكل الطعام) » (٢) .

ولتعلم أن أكثر أسباب الرزق متعلقة بمهنة التجارة ، كما قال الزمخشرى ، وإذا كانت الصناعة من الأمور المهمة ، وهى الوسيلة التى مكنت البشر أن يستخدموا ماخلق الله على الأرض أو أودع فى بطنها لإنماء حضارتهم واستكمال سعادتهم ، فمن المسلم به أنه بعد إنتاج السلع الزراعية أو الصناعية لابد من تداولها بين الناس ، ولايكون ذلك إلا عن طريق التجارة ، ومن « وصية لقمان لابنه : يابنى ، استغن بالكسب الحلال عن الفقر ،فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال : رقة فى دينه ، وضعة فى عقله ، وذهاب مروءته ، وأعظم من هذه الثلاث استخفاف الناس به » (٣) .

مما سبق يتبين لنا اهتمام الإسلام بإحدى الدعائم التى يقوم عليها تقدم البلدان وازدهارها ، وهى التجارة .

الإسلام والصناعة :

يعتبر الإسلام الحرف والمهن هى الوسيلة الأولى للارتزاق والدعامة الأساسية للإنتاج ، وإذا كان الإسلام يحض على الاشتغال بالصناعات المختلفة ، فإنه أيضا يحض على العمل بكافة أنواعه « فلا يقتصر مفهوم العمل على الاشتغال بمهنة أو حرفة أو الاصطناع أو الاتجار ، وإنما يتسع حتى يشمل كل عمل أو منفعة يؤديها الإنسان مقابل أجر يستحقه سواء كان عملا : يدويا ، أو ذهنيا ، أو إداريا ، أو فنيا ، وسواء كان : لشخص ، أو هيئة معينة ، أو للدولة » (٤) .

وجعل الإسلام الرسل القدوة والمثل فى الاشتغال بالمهن والحرف الصناعية : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ﴾ [الممتحنة] أى « لقد كان لكم فى إبراهيم ومن معه من الأنبياء

---

(١) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج١٣، ص ١٤ .

(٢) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج١١، ص ٢٧٢ .

(٣) أبو حذيفة إبراهيم بن محمد : آداب التاجر وشروط التجارة ، مكتبة الصحابة للطباعة والنشر والتوزيع ، طنطا ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م ، ص ١٥ .

(٤) أحمد محمد العسال ، فتحى أحمد عبد الكريم : النظام الاقتصادى فى الإسلام ، مبادئه وأهدافه ، الطبعة الأولى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٨٧ ، ص ٢٠ .

والأولياء أسوة حسنة » [1] ؛ إذ كانوا عاملين لأنفسهم ، فلقد كانوا يعملون ويحترفون مع أنهم خيرة خلق الله ، « فآدم احترف الزراعة ، ونوح النجارة ، وداود الحدادة ، وموسى الكتابة ، كان يكتب التوراة بيده » [2] « ولقمان الخياطة ، وقيل : النجارة » [3] « وكان زكريا نجارا » [4] ، وكل منهم قد رعى الغنم .

ومن غريب أمر المسلمين أنهم لم يفطنوا إلى ما قصه القرآن من سير الأنبياء والرسل رواد الحياة الروحية الذين ارتادوا للأمم الطريق إلى الله ، وكانوا فى الوقت نفسه روادا فى طريق المهن والحرف الصناعية ؛ فلقد كان نوح عليه السلام رائداً فى صناعة السفن ، حين صنع سفينته بوحى من الله ليحمل فيها من آمن معه من قومه ومن كل حيوان زوجين اثنين لينجوا من الطوفان ، قال تعالى : ﴿ **وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ** (٣٧) ﴾ [هود] ، « أى : اعمل السفينة لتركبها أنت ومن معك بحفظنا إياك » [5] .

وكان النبى (إبراهيم) وابنه النبى (إسماعيل) ـ عليهما السلام ـ يتقنان صناعة البناء ؛ وبذلك رفعا قواعد البيت الحرام فى مكة . قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** (١٢٧) ﴾ [البقرة] ، «والقواعد : أساسه . والمعنى أن الله أمر إبراهيم بعمارة البيت ، فخرج من الشام ومعه ابنه إسماعيل ، فرفعا البيت » [6] أى : بنياه . وسأل النبى يوسف عليه السلام ربه العمل ﴿ **قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** (٥٥) ﴾ [يوسف] ، « وقد سأل الحرفة بالحفظ والعلم لا بالنسب والجمال » [7] .

وكان النبى داود وابنه (سليمان) ـ عليهما السلام ـ رائدين فى الصناعة ، يصنع أولهما الدروع السابغات ، ويأكل من عمل يده : « ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ** (١٠) **أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** (١١) ﴾ [سبأ] ، وقوله : ﴿ **وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ** ﴾ ، أى : يسرنا له تشكيله ، وقوله : ﴿ **أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ** ﴾ ، أى : دروعا سابغات ، أو كوامل تامات واسعات » [8] ،

(١) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ١٨ ، ص ٥٧ .
(٢) لبيب السعيد : دراسة إسلامية فى العمل والعمال ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٥م ، ص١٦ .
(٣) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج١٤ ، ص٦٠ ، ٦١ .
(٤) الإمام مسلم : صحيح مسلم ، مرجع سابق ، ج ٧ ، ص ١٠٣ .
(٥) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ٩ ، ص٣٠ .
(٦) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص١٢٠ ـ ١٢٢ .
(٧) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ٩ ، ص٢١٦ .
(٨) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ١٤ ، ص٢٦٧ .

ويشرف ثانيهما على كثير من الصناعات ويسخر فى سبيل ذلك قوى الطبيعة الظاهرة والخفية ﴿ **وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ** (١٢) ﴾ [سبأ] ، «والقطر : النحاس المذاب ، وقيل الحديد والرصاص ، ولكنه على الأغلب النحاس ، ولم يذب النحاس فيما روى لأحد قبله ، وإنما ينتفع الناس اليوم بما أخرج الله ـ تعالى ـ لسليمان » (١) .

وكان ذو القرنين من رواد إقامة السدود بجانب ريادته لحياة العدل والإصلاح ﴿ **قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا** (٩٥) **آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا** (٩٦) ﴾ [الكهف]

والمعنى : أعطونى قطع الحديد وناولوتيها حتى إذا أتم البناء لجانبى الجبل ، قال : انفخوا على قطع الحديد بالأكيار،وذلك أنه كان يأمر بوضع طبقة من القطع والحجارة ، ثم يوقد عليها الحطب والفحم والمنافع حتى تحمى ، حتى إذا صار الحديد كالنار أتى بالنحاس المذاب أو الرصاص أو بالحديد بحسب الخلاف فى القطر ، فيفرغه على تلك الطبقة المنضدة . وإذا التأم واشتد ولصق البعض بالبعض ، استأنف وضع طبقة أخرى إلى أن استوى العمل وصار جبلا صلدا ، فما استطاعوا أن يصعدوه وما استطاعوا نقبه لبعد عرضه وقوته (٢) .

وكان النبى (عيسى) عليه السلام نموذجا فى معرفة : (صناعة الحياة) نفسها ، وطب الأجسام ، وشفاء الناس من الأمراض بإذن الله (٣) ، ﴿ **وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ [آل عمران:٤٩] ، « والأكمه : الذى يولد أعمى » (٤) ،« والبرص : داء معروف » (٥) ، « وهو بياض يعترى الجلد » (٦) .

« ثم كان محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، الثقة الأمين فى كل ما زاوله من عمل أو تجارة» (٧)،ولا غرابة إذن أن يجعل القرآن الصنعة (حصانة) أى مناعة،

---

(١) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ١٤ ، ص٢٧٠ .
(٢) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ١١ ، ص٦١ ، ٦٢ .
(٣) عبد المنعم خلاف : المادية الإسلامية وأبعادها ، مرجع سابق ، ص ١٤ ، ١٥ .
(٤) محمد بن أبى بكر الرازى : مختار الصحاح ، مرجع سابق ، ص ٥٧٩ .
(٥) المرجع السابق ، ص ٤٨ .
(٦) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ٩٤ .
(٧) عبد المنعم خلاف : المادية الإسلامية وأبعادها ، مرجع سابق ، ص ١٥ .

«والتحصن : التمنع ، ومنه الحصن لأنه يتمنع فيه،والمصدر الحصانة » [1]،قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأنبياء] ، «أى : لتمنعكم من السلاح » [2] ، وقوله : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ يعنى اتخاذ الدروع ، واللبوس عند العرب : السلاح كله ، وربما كان سيفا أو رمحا ، وقال قتادة : أول من صنع الدروع داود ، ليحرزكم من حربكم،وقيل:ليحرزكم من السيف والسهم والرمح ، وقرئت (لتحصنكم) بالتاء ردا على الصنعة [3] ، وكان قد دعا ربه أن يعلمه صنعة ويسهلها عليه ، فعلمه صنعة الدروع فكان يصنع الدروع ويبيعها حتى ادخر منها كثيرا ، وتوسعت معيشة منزله [4] ، فكانت الصناعة وسيلة لكسب عيشه .

لقد أصبح الحديد فى عصرنا الحالى وسيلة التسلح للأمم ، عليه تقوم الصناعات الحربية والمدنية ، وبه تستطيع الأمة أن تقف مع جاراتها من الأمم المتقدمة على قدم المساواة إن هى استطاعت استغلاله ؛ولذا يوجهنا الإسلام إلى استخدامه فيقول تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد] ،« أى : أخرج الله الحديد من المعادن وعلمهم صنعة بوحيه ، وقوله :﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ يعنى السلاح والكراع والجُنة .

وقوله : ﴿ مَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ يعنى انتفاع الناس بالحديد ، مثل : السكين ، والفأس ، والإبرة ، ونحوه » [5] ، « وفى هذا دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع ،وأن التحرف بها لاينقص من مناصبهم بل ذلك زيادة فى فضلهم ؛ إذ يجعل لهم التواضع فى أنفسهم والاستغناء عن غيرهم » [6] ، وهو قول أهل العقول والألباب ، لا قول الجهلة الأغبياء القائلين بأن ذلك شرع للضعفاء ، « فالصنائع والحرف واتخاذ الأسباب سنة الله فى خلقه. فمن طعن فى ذلك فقد طعن فى الكتاب والسنة » [7] .

إن آية واحدة فى القرآن كافية فى بعث نهضة علمية صناعية شاملة ، هذه الآية هى قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ

---

(١) محمد بن أبى بكر الرازى : مختار الصحاح ، مرجع سابق ، ص ١٤٠ ، ١٤١ .
(٢) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ٥ ، ص ١٢٠ .
(٣) المرجع السابق ، ج ١١ ص ٣٢٠ ، ٣٢١ . (٤) المرجع السابق ، ج ١٤ ، ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ .
(٥) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ١٧ ، ص ٢٦١ .
(٦) المرجع السابق ، ج ١٤ ، ص ٢٧٦ . (٧) المرجع السابق ، ج ١١ ، ص ٣٢١ .

﴿ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال] ، « والقوة هنا هى السلاح والقسى » (١) . « وقوله : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ كان يكفى ، ولكنه خص الرمى والخيل بالذكر ؛ لأن الخيل كانت أصل الحروب » (٢) . أما فى الوقت الحاضر فقد اختلفت الأسلحة من درع إلى مدافع ومعدات متطورة ؛ ولذا جاء لفظ ﴿ قُوَّةٍ ﴾ بصيغة النكرة ، لعلمه ـ سبحانه وتعالى ـ أن القوة ستختلف من زمن إلى آخر .

إن « القرآن يهيب بالمسلمين أن يبذلوا ما فى استطاعتهم من إعداد وسائل القوة والمنعة ؛ حتى يرهبهم أعداؤهم ؛ فلا يفكرون فى مهاجمتهم والقضاء عليهم » (٣) ، والنص يأمر بإعداد القوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها ، وما من شك فى أن المهن والحرف من عوامل تقدم الأمم ومصدر قوتها .

الهجرة والسعى فى طلب الرزق :

أوجب الإسلام على كل فرد مسلم أن يسعى ويعمل ويجتهد ملتمسا الرزق من خبايا الأرض والكون ؛ حتى يغنى نفسه بنفسه ، ويسد حاجته ، وينفق على أسرته غير مفتقر إلى معونة من فرد أو دولة ، ومن ضاق عليه رزقه فى بلد لسبب ما ، فعليه أن يضرب فى الأرض يبتغى من فضل الله ؛ فأرض الله واسعة .

إننا نجد « من الناس من يدع العمل ؛ لأنه لم يتيسر له فى بلده ومسقط رأسه وموطن أهله وعشيرته ومجمع ألفائه وأحبابه ، فهو يكره الغربة وينفر من الترحال ويتوجس من الهجرة والضرب فى الأرض ، وهو يؤثر الإقامة فى موطنه مع البطالة والفقر على الهجرة والسفر مع السعى والغنى، وهؤلاء قد حثهم الإسلام على الهجرة ، وشجعهم على الغربة ، وبين لهم أن أرض الله واسعة ، وأن رزق الله ليس محدوداً بمكان ، ولامحصورا فى جهة » (٤) ، يقول تعالى : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ [النساء] ، « من القلة إلى الغنى ، وفى هذا تحريض على الهجرة ، وقوله : ﴿ مُرَاغَمًا ﴾ ، قال ابن عباس : المراغم : التجول من أرض إلى أرض ، وقوله: ﴿ سَعَةً ﴾: يعنى الرزق » (٥)،وقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ

---

(١) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ٨ ، ص ٣٥ .

(٢) المرجع السابق ، ج ٨ ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٣) عبد المنعم خلاف : المادية الإسلامية وأبعادها ، مرجع سابق ، ص ١٤ .

(٤) يوسف القرضاوى : مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام ، مرجع سابق ، ص ٤١ .

(٥) الإمام ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥٤ .

أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المزمل] ، « أى : ومسافرون فى الأرض يبتغون من فضل الله من المكاسب والمتاجر » (١) ، وتلك صورة لما يجب أن تكون عليه أحوال المسلمين .

إن الإسلام « يفرض على المسلم السعى والعمل بالمهن والحرف المختلفة ، والله ـ سبحانه وتعالى ـ يأمرنا بذلك بما ورد فى القرآن الكريم من آيات تحض على السعى والهجرة فى طلب الرزق » (٢) ، بل إن سفر التجارة لكسب الزائد عن القوت جائز بفضل الله ـ سبحانه وتعالى ؛ إذ يقول تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ [البقرة] ، أى : لاحرج عليكم فى مزاولة التجارة وابتغاء الرزق فى مواسم الحج ، بل لكم أن تزاولوا التكسب بطرقه المشروعة وتبتغوا فضل الله ونعمته .

ويقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [البقرة] ، « والطيب هنا الحلال ، فهو تأكيد لاختلاف اللفظ » (٣) ،وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[الحجر] .

هذه الآيات السابقة تأمرنا بالانتشار والمشى فى الأرض ، والسعى فى كل سبيل يستطيع الإنسان فيه أن يجد عملا يعود عليه بثمرة انتشاره ومشيه وسعيه فى كل وجهة واتجاه إلى أبعد الغايات وأوسع الآفاق . فهل رأت البشرية على مر العصور تشجيعاً على الهجرة لكل غرض مشروع أروع من هذا التشجيع ؟!

إن العمل وحده عندما يكون هو الذى ينتج ويأتى بالكسب فإنه يكون أبرك طرق الكسب وأنقاها وأرقاها فى الإسلام ، فقد سخر الله ـ سبحانه وتعالى ـ الكون ليعمل فيه الإنسان « والعمل هو الوسيلة الوحيدة لنيل حق التملك فى الإسلام » (٤) .

---

(١) الإمام ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ٤٣٥ .

(٢) قطب إبراهيم محمد: الإطار الأخلاقى لمالية المسلم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ،١٩٨٣م ، ص٢٧ .

(٣) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٢٠٧ .

(٤) سيد قطب: العدالة الاجتماعية فى الإسلام،الطبعة السابعة ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٠ ،ص ١٢٤ .

أما البطالة فهى موجبة للفقر ، وكان رسول الله ﷺ يعوذ بالله من الفقر ومن شر فتنة الفقر ، فكان يقول : « . . . وأعوذ بك من فتنة الفقر » (١) ، بل كان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يتعوذ بالله من أسباب الفقر ، فكان يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، والعجز والكسل ، والجبن والبخل ، وضلع الدين ، وقهر الرجال » (٢) .

عمل المرأة فيما يناسبها من حرف ومهن :

لقد نقل الإسلام المرأة من حال إلى حال ؛ فبعد أن كانت شيئاً هامشياً ، أصبحت شخصية إنسانية ، لها من الحقوق والواجبات مايؤكد صفتها الإنسانية . إن المتأمل فى تعاليم الإسلام يلاحظ أن العمل ،هو للذكر والأنثى ؛ لأننا إذا نظرنا إلى قرآننا الكريم ، وجدنا أكثر آياته تحض على العمل والنداء للمسلمين جميعاً رجالا ونساء ، قال تعالى : **﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥) ﴾**

[آل عمران]

قال الضحاك : « رجالكم شكل نسائكم فى الطاعة ، ونساؤكم شكل رجالكم فى الطاعة ». ونظيرها قوله تعالى :**﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾** [التوبة : ٧١] (٣) ، وقوله تعالى : **﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) ﴾** [الكهف] ، **﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) ﴾** [الكهف] ، **﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) ﴾** [يونس] ، **﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩) ﴾** [الرعد] ، **﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾** [النحل] .

ولقد أباح الإسلام للمرأة القيام بالأعمال التى تحسن أداءها ، ولا تتنافر مع طبيعتها وتكوينها ، وإن كانت هذه الإباحية مقيدة بشروط .

لقد « كان النساء فى عهد رسول الله ﷺ يذهبن إلى المسجد للصلاة ، ويذهبن إلى السوق للتجارة ، ويخرجن فى الغزاوت لتشجيع ومساعدة الرجال ، فلا بأس على المرأة

---

(١) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع السابق ، ج ٨ ، ص ٩٨ (كتاب الدعوات) .

(٢) المرجع السابق والصفحة .

(٣) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ٣١٨ ، ٣١٩ .

الفاضلة أن تزاول نشاطها الإنسانى فى حدود الشرف والكرامة » [1] .

كما كانت المرأة فى عهد رسول الله ﷺ تقوم بكثير من الأعمال داخل بيتها وخارجه من غير أن ينكر رسول الله ﷺ عليها . تقول أسماء بنت أبى بكر الصديق زوج ابن العوام : « تزوجنى الزبير وما له فى الأرض من مال ولا مملوك ولاشىء غير فرسه . قالت: فكنت أعلف فرسه ،وأكفيه مؤنته ، وأسوسه ، وأدق النوى لناضحه ، وأعلفه ، وأستقى الماء ، وأخرز غَرْبَه ، وأعجن ، ولم أكن أُحْسِنُ أَخْبِزُ ، وكان يخبز لى جارات من الأنصار ، وكن نسوة صدق . قالت : وكنت أنقل النوى من أرض الزبير ـ التى أقطعه الرسول ﷺ ـ على رأسى وهى على ثلثى فرسخ ، قالت :فجئت يوما والنوى على رأسى ، فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفر من أصحابه . فدعانى ثم قال : « إخ ، إخ » ليحملنى خلفه ، قالت : فاستحييت ، وعرفت غيرتك ، فقال : والله لحملك النوى على رأسك أشد من ركوبك معه . قالت : حتى أرسل إلىَّ أبو بكر بعد ذلك بخادم ، فكفتنى سياسة الفرس فكأنما أعتقنى » [2] وقولها:(أخرز غربه) وهو الدلو الكبير ، ولفظة : (إخ ، إخ) ، كلمة تقال للبعير ليبرك،وقولها : (أرسل إلى بخادم) : أى جارية تخدمنى ؛ فيقال للذكر والأنثى خادم [3] ، وعن على بن أبى طالب عن زوجه فاطمة ـ عليهما السلام ـ « أنها أتت النبى ﷺ تشكو إليه ما تلقى فى يدها من الرحى » [4] .

والمرأة فى الإسلام عنصر فعال نشيط ، ترعى مال زوجها ، وترعى أولادها ، وترعى خدمها ، وتسهم فى توفير الراحة لأسرتها ، لأنها تعلم أنها مسئولة أمام الله ، ففى الحديث : « والمرأة راعية على بيت بعلها وولده ، وهى مسئولة عنهم » [5] بل يمتد عمل المرأة إلى خارج بيتها ، ففى أوقات الضرورة تشترك فى الجهاد ، وذلك فى الأعمال التى يمكن أن تقوم بها ، عن الربيع بنت معوذ « كنا مع النبى ﷺ نسقى ونداوى الجرحى ونرد القتلى إلى المدينة » [6] ، فالمرأة تعمل فى بيتها ، وتعمل خارج بيتها ، إنها عملت فى القيام على شئون بيتها ، كما رأينا فى حديث على عن فاطمة ، وعملت المرأة المسلمة فى التمريض ، فكانت تداوى الجرحى ، وتنقل القتلى إلى المدينة

---

(١) سيد قطب : معركة الإسلام والرأسمالية ، الطبعة الحادية عشرة ، دار الشروق ، القاهرة ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م ، ص ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) يحيى بن شرف بن حزام النووى :صحيح مسلم بشرح النووى ، تحقيق وإشراف عبد الله أحمد أبو رينة ، دار الشعب ، القاهرة د . ت ، ج ٥ ، ص ٢٦ .

(٣) المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٤) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٧ ، ص ٨٤ .

(٥) الإمام مسلم : صحيح مسلم ، مرجع سابق ، ج ٦ ، ص ٨ .

(٦) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ٤١ .

فى الحرب ، والمرأة اليوم مطلوب منها أن تشارك بعملها فى النهوض بالمجتمع التى تعيش فيه ، على ألا يتعارض هذا العمل مع التزامها بتربية أولادها والنهوض بأسرتها أو مع التزامها بقيم دينها .

العبادات والعمل :

« قد يقول بعض الناس : إن كل عقيدة دينية تفرض على المؤمنين بها ألوانا من العبادات وضروبا من القربات والمراسم ، تأخذ من أوقات الناس شيئا يضيق ويتسع باختلاف الأديان وصنوف عباداتها . وخذ مثلا الصلاة الإسلامية التى تؤدى كل يوم خمس مرات أليس فى ذلك تعطيل للعمل وتعويق للعامل عن أداء عمله ؟

الحق أن العبادات فى الأديان عامة لا تأخذ من وقت الناس إلا القليل ،ما لم يشرع الناس لأنفسهم من الدين ما لم يأذن به الله ؛ فيشقوا على أنفسهم ويرهقوها عسرا . على أن القليل الذى ينفق فى العبادات ليس وقتاً ضائعاً على الحياة والإنتاج . كلا إنه شحن للطاقة ، وشحذ للهمة ، وتوليد للقوة ، وصقل لمعدن النفس ؛ لتعود إلى معركة الحياة أقوى . وإنه لمن الظلم للواقع أن يقاس الشىء بأثره المادى المباشر المنظور ، ويغفل عن أثره الفعال الخفى الهادئ فى النفس وفى المادة أيضا » (١) .

فالإسلام عدو التبطل باسم العبادة والتدين ؛ « فالعبادة ليست وظيفة حياة ، وليس لها إلا وقتها المعلوم وتمضية الوقت فى التراتيل والدعوات بلا عمل منتج ينمى الحياة ، أمر لايعرفه الإسلام ، ولايقر عليه تلك الألوف المؤلفة فى مصر التى لاعمل لها إلا إقامة الصلوات فى المساجد ، أو تلاوة الأدعية والأذكار فى الموالد . إن العمل زكاة للأرواح والأجسام ، وعبادة من عبادات الإسلام التى يجب أن تنميها الدولة وتهيئ لها السبل للوصول إلى مستويات عليا من الإنتاج ؛ تجعلها تستطيع أن تقف مع الدول المتقدمة صناعيا على قدم المساواة » (٢) .

إن الإسلام يدعو « إلى التعمير والتنمية ، ويعتبرها ضربا من ضروب العبادة ، بل هى من أفضل صورها، وهو فى نفس الوقت ينذر الذين يكتنزون المال أو يحبسونه عن التداول والإنتاج » (٣) ؛ لأن الاستثمار ـ خاصة فى الأدوات التى تعين على قيام المهن والحرف ـ يزيد الإنتاج « والدخل القومى ويرفع مستوى معيشة المواطنين ؛ لذلك نهى الله ـ سبحانه وتعالى ـ عـن حبس الأموال واكتنازها » (٤) ، ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ**

(١) يوسف القرضاوى : الإيمان والحياة ، مرجع سابق ، ص ٣٠٠ .
(٢) سيد قطب : معركة الإسلام والراسمالية ، مرجع سابق ، ص ٥٢ .
(٣) محمد شوقى الفنجرى : نحو اقتصاد إسلامى ، مرجع سابق ، ص ٦٧ .
(٤) قطب إبراهيم محمد : الإطار الأخلاقى لمالية المسلم ، مرجع سابق ، ص٣٢ .

﴿ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾ [التوبة] .

العمل لا يلهى عن العبادة :

إن الله سبحانه وتعالى يريد من المسلمين أن يكونوا ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) ﴾ [النور] ، أى : رجال لاتشغلهم تجارة ، وخصها بالذكر لأنها أعظم مايشتغل به الإنسان عن الصلاة ، وقد « نزلت الآية فى رجلين كانا فى عهد رسول الله ﷺ أحدهما بياعاً فإذا سمع النداء بالصلاة فإذا كان الميزان بيده طرحه ولايضعه وضعا ، وإن كان بالأرض لم يرفعه ، وكان الآخر حداداً يعمل السيوف للتجارة ، فإذا كانت مطرقته على السندان أبقاها موضوعة ، وإن كان قد رفعها ألقاها من وراء ظهره إذا سمع الأذان فأنزل الله ـ تعالى ـ هذا ثناء عليهما وعلى كل من اقتدى بهما » (١) . يقول قتادة : « كان القوم يتجرون ، ولكنهم كانوا إذا نابهم حق من حقوق الله لم تلههم تجارة ولابيع عن ذكر الله » (٢) .

إن المسلم مطالب بالاهتمام بمهنته أو حرفته جنبا إلى جنب مع اهتمامه بالشعائر التعبدية من : إقام صلاة ، وزكاة ، وحج إن استطاع إليه سبيلا ، وعليه أن يحترز من الغرق فى مهنته ، فالتجارة ـ على سبيل المثال ـ تغرق أهلها ومن يتنافسون فيها فى الأرقام والحسابات والأرباح حتى أننا نجد فى عهد الرسول ﷺ وفى بداية الدعوة قبل أن ترسخ العقيدة تحضر قافلة بتجارة والنبى ﷺ يخطب ، فما أن سمع القوم بها حتى شغلوا بها عن سماعه ﷺ وانصرفوا إليها . فنزل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ [الجمعة] ، وفى ذلك يقول جابر رضي الله عنه : « بينما نحن نصلى مع النبى ﷺ إذ أقبلت من الشام عير تحمل طعاما فالتفتوا إليها حتى ما بقى مع النبى ﷺ إلا اثنا عشر رجلا فنزلت الآية السابقة » (٣) .

مكانة المهن والحرف عند الخلفاء الراشدين :

كان المسلمون الأوائل أعفاء النفوس يأبون أن يأخذوا الأموال إلا بالعمل بحرفة أو

---

(١) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ .
(٢) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٧٣ .
(٣) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٧١ (كتاب البيوع) .

مهنة ، ومما يدل على ذلك « حين آخى النبى ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ، قال سعد : إنى أكثر الأنصار مالا ، فأقسم لك نصف مالى ، وانظر أى زوجتى هويت نزلت لك عنها ، فإذا حلت تزوجتها . . . فقال له عبد الرحمن : لاحاجة لى فى ذلك ، هل من سوق فيه تجارة ؟

قال سعد : سوق قينقاع . فأتى عبد الرحمن بأقط وسمن ، ثم تابع الغدو ، فما لبث أن جاء عبد الرحمن وعليه أثر صفرة ، فقال رسول الله ﷺ:« تزوجت ؟ » قال : نعم ، قال : « ومن ؟ » قال : امرأة من الأنصار ، قال : « كم سقت ؟ » قال : زنة نواة من ذهب ـ أو نواة من ذهب ، فقال له النبى ﷺ: « أولم ولو بشاة » (١) .

وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ** (٢٧٣) ﴾ [البقرة] ، « والمراد بالفقراء فى الآية : فقراء المهاجرين من قريش وغيرهم ﴿ **الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ** ﴾ حبسوا أنفسهم عن التصرف فى معايشهم خوف العدو؛ولهذا قال الله تعالى: ﴿**لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ**﴾، وقوله تعالى: ﴿ **يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا** ﴾، أى أنهم من ترك المسألة يظنهم الجاهل بهم أغنياء ، إنهم لايسألون الناس عفة » (٢) ، وهؤلاء هم الذين رباهم محمد ﷺ على العفة والاستغناء عن الناس بالحرفة والمهنة . وسار عمر بن الخطاب على هذا النهج فى خلافته ، فجعل العمل ـ مهما كان حقيرا فى نظر المجتمع ـ أفضل من البطالة . يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « (مكسب فى دناءة خير من سؤال الناس)،وحذر الإسلام من السؤال لغير الحاجة ، وضيق عليها الخناق ؛ وذلك ليدفع الإسلام أبناءه إلى العمل الذى هو أساس العمران وقوام حياة الفرد والمجتمع ، ولكى يحفظ المرء بعمله ماء وجهه ، بدلاً من إراقته على أعتاب الناس ، أو التطفل على موائد الآخرين ، فيسأل الناس ، فيعطيه رجل ويمنعه آخر » (٣) .

عمر تاجرا :

يروى أن أبا موسى الأشعرى استأذن على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلم يأذن له ، وكأنه كان مشغولاً ، فرجع أبو موسى ، ففزع عمر قال : ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس ؟ ائذنوا له ، قيل : قد رجع ، فدعاه فقال : كنا نؤمر بذلك ، فقال : تأتينى على ذلك بالبينة ؟ فانطلق إلى مجالس الأنصار ،فسألهم، فقالوا: لا يشهد لك على هذا

---

(١) المرجع السابق ، ج٣ ، ص٦٨ ، ٦٩ .

(٢) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٣٤٠ ، ٣٤٢ .

(٣) عيسى عبده ، أحمد إسماعيل يحيى : العمل فى الإسلام ، مرجع سابق ، ص ٣٣ ، ٣٤ .

إلا أصغرنا أبو سعيد الخدرى ، فذهب بأبى سعيد الخدرى ، فقال عمر : أخفى على من أمر رسول الله ﷺ ؟ ألهانى الصفق بالأسواق ، يعنى الخروج إلى تجارة [١] .

ويتضح من هذه الرواية « أن اشتغال عمر بالتجارة ألهته عن ملازمته للنبى ﷺ حتى سمع غيره منه ما لم يسمعه » [٢] وكان عمر رضي الله عنه فى ذلك قدوة لمن أراد أن يكتسب لعياله ويتعفف عن الناس .

لقد كانت التجارة منتشرة فى عهد النبى ﷺ يمارسها أصحابه من المهاجرين والأنصار ، ومما يؤكد ذلك مايرويه أبو هريرة رضي الله عنه فيقول : « إنكم تقولون : إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ ، وتقولون : ما بال المهاجرين والأنصار لايحدثون عن رسول الله بمثل حديث أبى هريرة ؟ وإن إخوتى من المهاجرين كان يشغلهم صفق بالأسواق » [٣] ، أى اشتغال بالتجارات والبيوع بأنواعها المختلفة . «ولو نظرنا إلى صحابته ﷺ ، مع كونه بين أظهرهم ، تتنزل عليه آيات الله ويناجيهم بها ، ويغدو عليه الروح الأمين ، وكلهم حب لهذا النبى الكريم ، يتمنى كل امرئ منهم ألايفارقه طرفة عين ، ومع ذلك نجد أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ كلا فى عمله ، هذا يضرب فى الأرض لتجارته ، وهذا يعمل فى نخله وزرعه ، وذاك يسعى فى حرفته وصنعته ، حتى فى العلم ؛ فمن فاته شىء من العلم سأل عنه ، فكانوا حريصين على العلم والعمل » [٤] ؛ ولذلك نجد « أن أكثر أنصاره ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من العمال حدادين وخياطين ونجارين وجزارين وحلاقين ورعاة غنم » [٥] .

أبو بكر بزازا :

« كان أبو بكر بزازاً (تاجر منسوجات) ، خرج صبيحة بيعته بالخلافة حاملا على كتفه أثوابا إلى السوق ، فاعترضه عمر بن الخطاب وبعض الصحابة ، وسألوه أن يضرب عن التجارة ليتفرغ لمصالح المسلمين ، فقال لهم : ومم أنفق على أهلى ؟ إنى إن أضعتهم فأنا للمسلمين أضيع ، ففرضوا له فى بيت المال ما يغنيه عن التجارة ، ويكفى أهله ؛ لكى يتفرغ لمهام منصبه الجديد ، وبهذا يتبين حب أبى بكر لحرفته التى كان يعمل بها قبل تولى أمر المسلمين » [٦] . وهذا دليل على اشتغال خليفة رسول الله ﷺ

---

(١) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٧٢ (كتاب البيوع) .

(٢) ابن حجر العسقلانى : فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج٤ ، ص ٣٥٠ .

(٣) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٦٨ (كتاب البيوع) .

(٤) أبوحذيفة إبراهيم بن محمد :آداب التاجر وشروط التجارة ، مرجع سابق ، ص ١٩ .

(٥) إبراهيم النعمة : العمل والعمال فى الفكر الإسلامى ، الطبعة الأولى ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ١٩٨٥ ، ص ١٥ .

(٦) عطية صقر: الإسلام دين العمل ، (سلسلة كتب إسلامية) يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وزارة الأوقاف ، القاهرة ، العدد ١٨ ، محرم ، ١٣٨٢ هـ ـ يونية ١٩٦٢ م ، ص ٤٠ .

بالتجارة ، ولم يكن ينظر إليها نظرة انتقاص .

عثمان تاجرا :

« كان عثمان بن عفان تاجرا ناجحا فى تجارته ، كما كان عبد الرحمن بن عوف صاحب ثروة ضخمة من تجارته ، وروى عن ابن عباس أن عليا رضي الله عنه أجر نفسه من يهودى يسقى له كل دلو بتمرة » (١) .

صحابة عاملون بمهن وحرف :

كان « عمرو بن العاصى جزارا » (٢) ، « وخباب بن الأرت حدادا ، وسعد بن أبى وقاص يصنع النبال ، وعمل عبد الله بن مسعود فى رعاية الغنم » (٣) .

وكان عمر بن الخطاب يقول : « لايقعد أحدكم عن طلب الرزق ، وهو يقول : اللهم ارزقنى ، وقد علم أن السماء لاتمطر ذهبا ولافضة ، وإنما يرزق الله الناس بعضهم من بعض » (٤) ، وقد عمل عمر بالتجارة كما ذكرنا سابقا ، وكان يقول : « مامن يوم يأتينى منية الموت أحب إلى من يوم أتسوق فيه لأهلى ، أبيع وأشترى » (٥) ، وكان ابن مسعود يقول : « إنى لأكره أن أرى الرجل فارغا » (٦) .

« وورد أن عمر بن الخطاب دخل السوق فى خلافته فلم ير فيه فى الغالب إلا النبط (٧) ؛ فاغتم لذلك ، فلما اجتمع الناس أخبرهم بذلك وعدد لهم فى ترك السوق ، فقالوا : إن الله أغنانا عن السوق بما فتح به علينا ، فقال رضي الله عنه : والله لإن فعلتم ليحتاج رجالكم إلى رجالهم ، ونساؤكم إلى نسائهم » (٨) .

ولقد « صدقت فراسة عمر فى هذه الأمة ؛ فإنها لما تركت التجارة بطرقها المشروعة المرغوبة وأساليبها الناجحة ، تلقفها غيرهم ؛ فأصبحت الأمة عالة على غيرها ، رجالنا على رجالهم ، ونساؤنا على نسائهم من كل شىء من الإبرة والمخيط إلى أرفع شىء

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤١ . (٢) المرجع السابق ، ص ٤١ .

(٣) إبراهيم النعمة : العمل والعمال فى الفكر الإسلامى ، مرجع سابق ، ص ١١٩ .

(٤) سليمان الطماوى : عمر وأصول السياسة والإدارة الحديثة ، دار الفكر العربى ، ١٩٦٩م ، ص ٤١٨ .

(٥) عطية صقر : الإسلام دين العمل ، مرجع سابق ، ص ٤١ .

(٦) أبوحذيفة إبراهيم بن محمد :آداب التاجر وشروط التجارة ، مرجع سابق ، ص ١٤ .

(٧) النبط : قوم من العرب دخلوا فى العجم والروم واختلطت أنسابهم وفسدت ألسنتهم ، وكان الذين اختلطوا منهم بالعجم ينزلون البطائح بين العراقين ، والذين اختلطوا بالروم ينزلون فى بوادى الشام ، ويقال لهم : النبط ؛ لمعرفتهم بأنباط الماء (انظر ابن حجر العسقلانى ، المجلد الرابع ، ص ٥٠٣) .

(٨) عبد الحى الكتانى:نظام الحكومة النبوية المسمى بالتراتيب الإدارية ، دار الكتاب المصرى ، بيروت ، د.ت ، المجلد الثانى ، ص ٢٠ .

وأثمنه » [1] ، والذى قال ذات يوم : « تعلموا المهنة فإنه يوشك أن يحتاج أحدكم إلى مهنته » [2] .

وكان زيد بن سلمة يغرس فى أرضه فقال له عمر رضي الله عنه : أصبت استغن عن الناس يكن أصلا لدينك وأكرم لك عليهم [3] .

« ولما لقى عمر بن الخطاب قوما لايعملون سألهم عن سبب ذلك ، فقالوا : نحن متوكلون . فقال : كذبتم ، إنما المتوكل رجل ألقى حبة فى الأرض (أى : اشتغل بمهنة الزراعة)، ثم توكل على الله » [4] ، ولقى عمر أبا هريرة ، فقال له ألا تعمل ؟ قال : لا أريد العمل . قال : قد طلب العمل من هو خير منك يوسف عليه السلام [5] ، ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يوسف] ، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يدعو رعيته إلى السعى على جلب الرزق للأولاد ، فكان يقول : « أوصيكم بذمة الله فإنه ذمة نبيكم ورزق عيالكم » [6] .

إن عمر بن الخطاب ـ فى ظل الروح الإسلامية ـ لا يستثنى القراء مع أنهم أهل رأيه ومشورته ومحل ثقته وتقديره ، لايستثنيهم من الحث على التماس الرزق عن طريق العمل ، وعلى الترفع على أن يكونوا عالة على الناس، فيقول لهم:« يا معشر القراء ، التمسوا الرزق ولاتكونوا عالة على الناس » [7] ، وقد لخص الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه نظرة الإسلام إلى أمانة العمل ومسئوليته بقوله : « والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد يوم القيامة » [8] .

وبهذا نبه عمر صحابته إلى ضرورة الاعتماد على النفس وعدم ترك المهن الإنتاجية ؛ حتى لايصبح الاقتصاد الإسلامى تابعا لغيرهم ، حتى ولو كان عذرهم فى ذلك الاشتغال بالفتوح ووفرة الثروات لديهم ؛ « لأن المهن من وسائل بناء المجتمع وعمارة الأرض وترقيتها ، والمقصود بالمهن هنا المهن بكل أنواعها وألوانها المباحة من : استصلاح للأرض ، وزراعتها ، واستخراج ما فى باطنها من خيرات ، وكذلك الصناعة بجميع أنواعها وألوانها ، والتجارة بجميع أنواعها أيضا » [9] .

ولقد « سأل معاوية رضي الله عنه سعيد بن العاص عن المروءة ، فقال : العفة والحرفة .

(١) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢١ . (٢) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٢ .
(٣) أبوحذيفة إبراهيم بن محمد :آداب التاجر وشروط التجارة ، مرجع سابق ، ص ١٥ .
(٤) إبراهيم النعمة : العمل والعمال فى الفكر الإسلامى ، مرجع سابق ، ص ١١٩ .
(٥) لبيب السعيد : دراسة إسلامية فى العمل والعمال ، مرجع سابق ، ص ١٧ .
(٦) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ١١٩ .
(٧) لبيب السعيد : دراسة إسلامية فى العمل والعمال ، مرجع سابق ، ص ١٧ .
(٨) محمد شوقى الفنجرى : نحو اقتصاد إسلامى ، مرجع سابق ، ص ٩٤ .
(٩) على أحمد مدكور : منهج التربية الإسلامية ، أصوله وتطبيقاته ، مرجع سابق ، ص ١٧٦ .

وكان بعض الصالحين يقول : يا فتيان ، احترفوا ؛ فإنى لا آمن عليكم أن تحتاجوا إلى القوم ، يعنى الأمراء ، وقال رجل للحسن : إنى أنشر مصحفى فأقرؤه بالنهار كله ، فقال : اقرأه بالغداة والعشى ويكون يومك فى صنعتك وما لابد منه ؟ ومر ـ رحمه الله تعالى ـ بإسكافى ، فقال : ياهذا ، اعمل وكل ، فإن الله يحب من يعمل ويأكل ، ولا يحب من يأكل ولايعمل » (١) .

تقول عائشة رضي الله عنها : « كان الناس مهنة أنفسهم ، وكانوا إذا راحوا إلى الجمعة راحوا فى هيئتهم : فقيل لهم : لو اغتسلتم » (٢) ، « وقولها : (كان الناس مهنة أنفسهم) : أى ذوى مهنة » ، وعن يحيى بن سعيد أى : « كان الناس أهل عمل ، ولم يكن لهم من يكفيهم العمل من الخدم » (٣) .

وهكذا نجد أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يعملون ؛ ولم يحتقروا المهن أو الحرف البسيطة ؛ وكانوا ينظرون إلى العاملين نظرة محترمة . ولقد كانت تعاليم الإسلام من قرآن وسنة وراء اشتغال المسلمين الأوائل بالحرف والمهن فى المجتمع المسلم، بل إنها تمثل بالفعل ثورة فى القيم والاتجاهات نحو العمل اليدوى والحرفى والمهنى ، فقد اندفع الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ إلى الحرف والمهن من زراعة وصناعة وتجارة حتى وجدنا منهم : التجار البارعين ، والصناع الحاذقين ، والزراع الفالحين ، وكذا الحال فى سائر المهن والحرف .

لقد « كان صحابة رسول الله ﷺ لا يجدون أى تناقض بين أن يكونوا القدوة والأسوة فى الدين ، وأن يكونوا فى نفس الوقت هم الأثرياء الأغنياء العاملين فى شتى مجالات الاقتصاد » (٤) .

ويكفى أن نذكر من ثراء بعضهم « أن عبد الرحمن بن عوف أوصى لمن بقى من أهل بدر لكل رجل بأربعمائة دينار، فكانوا مائة فأخذوها ، وأخذ عثمان فيمن أخذوا ، وأوصى بألف فرس فى سبيل الله » (٥) .

وعن « أنس قال : لقد رأيته منح لكل امرأة من نسائه بعد موته مائة ألف ، وقد مات عن أربع نسوة » (٦) .

---

(١) شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهى: المستطرف فى كل فن مستظرف ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ١٤١١ هـ ـ ١٩٩٠ م ، ج ٢ ، ص ٥٠ .

(٢) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٨ .

(٣) ابن حجر العسقلانى : فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ٣٥٣ .

(٤) عبد الرحمن النقيب : مدخل لدراسة الاتجاه المهنى والحرفى فى التربية الإسلامية ، بحوث فى التربية الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ١٢٤ .

(٥) عبد الحى الكتانى : التراتيب الإدارية ، مرجع سابق ، ص ٣٩٩ .

(٦) عبد الرحمن النقيب : مدخل لدراسة الاتجاه الحرفى والمهنى فى التربية الإسلامية ، بحوث فى التربية الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ١٢٤ .

عبد الرحمن بن عوف تاجرا :

وكان عبد الرحمن بن عوف تاجرا بارعا فى التجارة ، وكسب مالا كثيرا ، وخلف ألف بعير ، وثلاثة آلاف شاة ، ومائة فرس ترعى بالبقيع ، وكان يزرع على الحرف بعشرين ناضحا [١] ، « والنضح : الرش ، والناضح : البعير يستقى عليه ، والأنثى ناضحة » [٢] ، حتى أنه « حين توفى قال ناس من أصحاب رسول الله ﷺ : إنما نخاف على عبد الرحمن فيما ترك ، فقال كعب : سبحان الله ؟ ! وما تخافون على عبد الرحمن ؟ كسب طيبا ، وأنفق طيبا وترك طيبا » [٣] .

ولأن الإسلام « يقدس العمل وبذل الجهد ويجعله أساس عمارة الأرض وترقيتها على أساس من القيم النظيفة ، فهو يحاول دائما أن يجعل الإنسان قادرا دائما على العمل » [٤] .

ومن ثم « وجب على الدولة المسلمة أن تعمل على توفير العمل لكل قادر عليه وأن تمكنه منه،بالإعداد له وبتوفير وسائله وبضمان الجزاء الأوفى عليه، وليس للقادرين على العمل من حق فى الزكاة » [٥] ، وعلى الدولة المسلمة أن تنشئ المؤسسات التى ترعى المعوقين وتدربهم على بعض الحرف « فالمسلم لايكون إلا منتجا » [٦] .

ولعل مايؤخذ على نظامنا التعليمى فى جمهورية مصر العربية أنه مازال يعانى من وجود بعض فئات من الشباب الذى يأنف من العمل اليدوى ، ويؤثر الوظيفة الإدارية أو الكتابية على العمل الفنى ؛ مما أثر على إنتاجية مجتمعنا ، خاصة بعد أن هاجر كثير من عمالنا الفنيين إلى خارج البلاد ، الأمر الذى يدعونا لإدخال أنواع التعليم الفنى أو بعض أنواع المهن والحرف اليدوية فى برامج التعليم الثانوى ، مما يسمح للطلبة بالإلمام بشىء من الصناعات أو المهارة فى أى عمل من الأعمال اليدوية ؛ حتى لا تسد فى وجه الطالب أبواب الرزق إذا لم يسعفه الحظ بإتمام مراحل التعليم العالى ، وحتى ننزع من قلوب الشباب الاستعلاء على مثل هذه الأعمال .

إن الأخذ بنظرة الإسلام لصاحب الحرفة أو المهنة هو العلاج لمشكلة البطالة ، والتى ظهرت فى الآونة الأخيرة بين المثقفين ـ خاصة فى ج . م . ع ـ الذين يأنفون من

---

(١) عبد الحى الكتانى : التراتيب الإدارية ، مرجع سابق ، ص ٣٩٩ .

(٢) محمد بن أبى بكر الرازى : مختار الصحاح ، مرجع سابق ، ص ٦٦٤ .

(٣) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص ٤١٧ .

(٤) على احمد مدكور : منهج التربية الإسلامية ، أصوله وتطبيقاته ، مرجع سابق ، ص ١٧٧ .

(٥) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ١٦٦٨ .

(٦) رؤوف شلبى : العمل الاقتصادى من وجهة نظر الإسلام ، الطبعة الأولى ، دار الاعتصام ، ١٩٧٩ م ، ص ٢٤ .

العمل اليدوى الذى كرمه الإسلام وحض عليه رسول الله ﷺ ـ الأسوة الحسنة ـ وصحابته الكرام الذين تقول عنهم عائشة رضي الله عنها : « كان أصحاب رسول الله ﷺ عمال أنفسهم » (١) .

والخلاصة أن « الإسلام حرب شعواء على البطالة ، نفَّر منها ، وحذر ، وتوعد عليها وأنذر ، وكيف توجد البطالة وقد سهَّل الله لنا الأرض ومهدها للسير عليها وجعلها كالفراش أو البسط ، كما يسر طرق الانتفاع منها ، فلا عذر يوجب البطالة ، ومن توقف عن السعى مع القدرة عليه ، فقد خالف سنة الله فى الكون ؛ لأنه يعيش عالة على إخوانه » (٢) .

وإذا كان النبى ﷺ قد كره لأتباعه هذا التعطل ونأى بالواحد منهم أن يكون كَلاً على غيره ، فلا شك « أن اعتماد الدولة على غيرها من الدول والاستدانة من الدول الأخرى يعد أكثر إهانة وخطرا ؛ لما يترتب عليه من تبعية وانقياد يتنافى مع كون الأمة المسلمة خير أمة أخرجت للناس » (٣) .

مكانة المهن والحرف عند علماء المسلمين :

لم يعرف العلماء فصلا بين العمل للدنيا والعمل للآخرة ، ومما يدل على قوة الرابطة بين الدين والحياة ، أن كثيرا من العلماء كانوا يمارسون حرفا معينة ويطلبون العلم فى الوقت ذاته ، وسما بعضهم إلى أسمى المراتب ، ومن أولئك : « عبد الحميد الكاتب (١٣٢ هـ) ، والضحاك بن مزاحم (١٠٥ هـ) ، فقد بدأ أولئك حياتهم معلمين للأطفال ، ثم خطت بهم مواهبهم ، فأصبحوا لامعين فى المجتمع الإسلامى ، وانتقلوا إلى مكانة جديدة ضمنت لأسمائهم الخلود » (٤) .

ومن أولئك أيضا ، أبو إسحاق الكازرونى الذى « كان يذهب عند الفجر ليتلقى الدروس فإذا أقبل النهار التحق بعمله التجارى ، وكان يختلس الوقت للنظر والاستذكار وأصبح بذلك عالما من خير العلماء » (٥) .

وغير هؤلاء من العلماء الذين لم يفصلوا بين الوظيفة الفكرية والوظيفة العملية ، أى أن الطالب كان يقسم وقته بين العمل للكسب وبين التعلم للتثقيف ، ولا زلنا نقرأ أو نسمع عن عدد كبير من علماء المسلمين الذين أغنوا مكتبات العالم بعلوم ومعارف

---

(١) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٧٤ (كتاب البيوع) .

(٢) عيسى عبده ، أحمد إسماعيل يحيى : العمل فى الإسلام ، مرجع سابق ، ص ٤١ .

(٣) فوقية محمد ياقوت شهبة : القيم التربوية للتنمية فى الحديث الشريف ، مرجع سابق ، ص ١١٢ .

(٤) أحمد شلبى: التربية الإسلامية (نظمها ـ فلسفتها ـ تاريخها) ، الطبعة السادسة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٨٧ ، ص ٥٨ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٣١٥ .

كثيرة ، وما نسبوا إلى آبائهم وأجدادهم ، بل نسبوا إلى المهن والحرف التى كانوا يمارسونها ، فيأكلون لقمة العيش منها ولم يجد هؤلاء العلماء ولا المجتمع الذى يعيشون فيه أى غضاضة من هذه النسبة إلى المهنة أو الحرفة،ولازلنا نقرأ اسم الزجاج ، والخياط ، والبزاز ، والخراز ، والقطان ، والقدورى الذى يشتغل بصناعة القدور ، والخصاف الذى يشتغل بخصف النعال (١) ، والثعالبى الذى يشتغل بخياطة جلود الثعالب .

وقد روى الذين أرَّخوا للإمام أحمد بن حنبل أنه كان مع علمه الجم ومكانته المرموقة عند الناس كلهم لايجد غضاضة من أى عمل ، فكان يؤجر نفسه للحمل فى الطريق إذا كان بحاجة إلى نفقة ، وقد سئل الإمام أحمد : ماتقول فيمن جلس فى بيته أو مسجده وقال : لا أعمل حتى يأتينى رزقى ؟ فقال : هذا رجل جهل العلم (٢) .

ولقد كان لعلماء المسلمين آراء عظيمة ، نذكر منهم على سبيل المثال [الشيخ الشعرانى] ، وهو من دعاة التصوف ، فقد كان يفضل الصناع على العباد ؛ لأن نفع العبادة مقصور على صاحبها ، أما المهن والحرف فنفعها لعامة المسلمين ، وكان يقول : ما أجمل أن يجعل الخياط إبرته سبحته ، وأن يجعل النجار المنشار سبحته (٣) .

ومما يدل على اشتغال عدد كبير من فقهائنا وعلمائنا بالعمل اليدوى أن محمد بن إسحاق الهروى ألف كتابا أسماه (كتاب الصنَّاع من الفقهاء والمحدثين) (٤) .

ويظهر هذا فى مجال الحياة العامة فى المجتمع الإسلامى فى العصور الوسطى ؛ حيث يبدو بوضوح عدم الفصل بين العلم والعمل ، فقد كانت الحرف والمهن والصناعات المختلفة تستقبل أبناءها من خريجى الكتاتيب ، بل إن الصبيان بعد انتهائهم من تعليمهم يشتغلون مع آبائهم فى الزراعة فى الريف ، أو بعض الحرف والمهن فى المدن ، حيث كان المجال لاكتساب المهنة عن طريق الممارسة العملية ، ويصبح الصبى ماهرا فيها بعد فترة (٥) .

« ولم تقصر المناهج فى بعض عصور الإسلام القوية اهتمامها على العلوم والدراسات النظرية ، التى يغلب عليها التفكير المجرد ، وإنما اهتمت بما يؤدى فى النهاية إلى إعداد الصبى المتعلم لمهنة أو لحرفة ، وإلى تنمية مهارة من المهارات اليدوية

---

(١) خصف النعل : خرزها (انظر مختار الصحاح ، مرجع سابق ، ص ١٧٧) .

(٢) إبراهيم النعمة : العمل والعمال فى الفكر الإسلامى ، مرجع سابق ، ص ٢١ : ٢٣ .

(٣) يوسف القرضاوى : مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام ، مرجع سابق ، ص ٤٠ .

(٤) إبراهيم النعمة : العمل والعمال فى الفكر الإسلامى ، مرجع سابق ، ص ٢٣ .

(5) Dofge Bayard : Muslim Education in Medievel Times . The Middle East institute, washington. D . C . 1962 . p . 5 .

لديه باعتبار أن التدريبات المهنية ، هى من مستلزمات التقدم الحضارى » [1] .

وعقد ابن خلدون فى مقدمته بابا كاملا ـ هو الباب الخامس من الكتاب الأول ـ بعنوان : [فى المعاش ووجوبه من الكسب والصنائع وما يعرض فى ذلك كله من الأحوال] ، والفصل الأول منه جعل موضوعه [فى حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وأن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية] ، وقد بنى الموضوع على المسلمة الآتية [أن الإنسان مفتقر بالطبع إلى مايقوته ويمونه فى حالاته وأطواره من لدن نشوئه إلى أشده] [2] .

وإذا كان الإنسان مضطرا إلى تحصيل الرزق لاستمرار حياته ، وأن ذلك لايتم إلا بالاشتغال بالمهن ، فإن الهدف من المهن هنا يكون إشباع الضرورات ، وفى ذلك يقول ابن خلدون : « اعلم أن المعاش هو عبارة عن ابتغاء الرزق والسعى فى تحصيله وهو مفعل من العيش ، كأنه لما كان العيش الذى هو الحياة لايحصل إلابهذه جعلت موضوعا له على طريق المبالغة » [3] .

وقد ذكر مذاهب كثيرة فى تحصيل العيش ما بين بدائية كالصيد وحضارية كالصنائع، ويردد ابن خلدون ما ذكره المحققون من أهل الحكمة والأدب فقال: «المعاش إمارة ، وتجارة ، وفلاحة ، وصناعة ، فأما الإمارة : فليست بمذهب طبيعى للمعاش ، وأما الثلاثة الأخرى.فهى وجوه طبيعية للمعاش ، والفلاحة متقدمة عليها جميعا لبساطتها وفطريتها ، وأما الصنائع فهى ثانيتهما ومتأخرة عنها ؛ لأنها مركبة ، وتصرف فيها الأفكار ؛ ولهذا توجد فى أهل الحضر الذى هو متأخر عند البدو ، ثان عنه ، وأما التجارة ، وإن كانت طبيعية فى الكسب ، فالأكثر من طرقها ومذاهبها إنما هى تحيلات فى الحصول على ما بين القيمتين فى الشراء والبيع ؛ لتحصل فائدة الكسب عن تلك الفضلة » [4] .

ويرى ابن خلدون أن الصنائع ، بشكل خاص ، تعتبر من ضروريات العمران ، ويقسمها إلى : صنائع ضرورية ، وصنائع مترفة ، وصنائع شريفة بالموضع ، ولايكتفى ابن خلدون بمجرد ذكر هذه الصنائع ، وإنما يجرى تعريفا شاملا بكل صناعة على حدة ، وهذا يبين لنا أهمية الصنائع عند علماء المسلمين وفقهائهم .

«وعن التجارة والتجار يتحدث ابن خلدون حديثا طويلا مليئا بالمعلومات والخبرات، وكأنه ممارس لاخبير بأسرارها وأبعادها ، وحديثه عن التجارة والتجار صادر من منطلق

---

(١) عبد الغنى عبود: فلسفة التعليم الابتدائى وتطبيقاته ، الطبعة الأولى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ٢١٥ .

(٢) عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة ، دار الشعب ، القاهرة ، د . ت ، ص ٣٤٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٤٥ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

كون التجارة تشكل ركنا أساسياً فى التنمية الاقتصادية للعمران البشرى ، وأن التجار على اختلاف طبقاتهم وتنوع أصنافهم يشكلون قطاعا كبيرا من قطاعات سكان المدن والأمصار . وإذا كانت الصنائع تحتاج إلى المهارات اليدوية والملكات الفنية ، فإن التجارة محتاجة إلى : اليقظة وسرعة الحركة ، وملاحظة الأسواق ، والتنقل فى البلدان . وعن الربح فى التجارة يورد ابن خلدون وسائل شتى متحدثا عن كل وسيلة بما يعرف بها ويكشف خباياها ، فمن ذلك اختزان البضاعة ، ومنها نقل البضاعة إلى بلد هى فيه أنفق وأغلى ، ومنها البيع على الغلاء بالآجال . فأما الاختزان فيكون لحين تحرك الأسعار فى الأسواق من الرخص إلى الغلاء فيعظم الربح ، وأما نقل السلع فله شروط نظيفة حددها ابن خلدون ، منها ألا ينقل من السلع إلا ماتعم الفائدة والحاجة إليه من الغنى والفقير على حد سواء ، يعنى الوسط فى البضائع ، فالناس سواء فى الحاجة إلى الوسط من كل صنف ، ومنها نقل السلع من البلد البعيد المسافة حيث تكون السلعة قليلة مطلوبة لبعد مكانها .

ولقد توسع ابن خلدون فى الحديث عن التجارة ، فتناول بالدارسة عدداً من البضائع ، والغلاء ، والرخص ، والاحتكار ، وتحدث عن المال ونشاط حركته بين مختلف الشعوب » (١) .

بل حرص أن يتحدث بإفاضة عن الصناعة والتجارة والفلاحة ، وهى الوجوه الأساسية لحركة المال والنشاط الاقتصادى .

وإذا « كانت نظريات ابن خلدون عن حياة المجتمع المعقدة تضعه فى مقدمة فلاسفة التاريخ ، فإن فهمه للدور الذى يؤدى به العمل والملكية والأجور يضعه فى مقدمة علماء الاقتصاد والمحدثين » (٢) .

وقد أورد البخارى أحاديث المعاملات أولاً فى التجارة ثم فى الزراعة ، ثم فى الصنعة ؛ مما يدل على اهتمام الرسول ﷺ بالاشتغال فى الدنيا واتباع صحابته لهذا النهج وتقدير السلف الصالح (أمثال البخارى) للاشتغال فى الدنيا .

دور الدولة فى المهن والحرف :

« العمل فى كل باب من أبواب النفع (الإنتاج) فرض كفاية ، يجب تحققه ، ولو ترك كان على الجماعة كلها مغبة تركه بالنسبة للمجتمع، وعليها الإثم أمام الله ـ تعالى ـ

---

(١) مصطفى الشكعة: الأسس الإسلامية فى فكر ابن خلدون ونظرياته ، الطبعة الأولى ، الدار المصرية اللبنانية ، ١٩٨٦ ، ص ٥٠ .

(٢) محمد أحمد الصادق كيلانى: الفكر التربوى فى مقدمة ابن خلدون ،مرجع سابق ،ص ٢٤ . نقلا عن:
The columbia Encyclopedia ' New yourk ' Columbia university , press ,1956 , p . 941 .

إذا هى قصرت فى إقامة فرض الكفاية ، ويرفع الإثم عنهم جميعا بالقيام به ، ويشترك الجميع فى الوزر إذا هم قصروا فيه » (١) .

ومعنى ذلك أنه إذا لم يتكاتف المجتمع كله فى توفير الحرف والمهن التى يحتاجها بالفعل أثمت الجماعة كلها « فقد أوضح فقهاء الأمة أن كل علم تحتاجه الأمة الإسلامية فرض كفاية ، إذا لم تقم به الأمة ببعض أفرادها أثمت جميعاً ، وقالوا فى ذلك : لو احتاج المسلمون لصناعة إبرة ولم يوجد بينهم من يحسن صناعتها فكل المسلمين آثمون ، وعلى ذلك فكل اختصاص مفيد هو فرض من الفروض ، لابل والتبحر فى الاختصاص مندوب » (٢) .

ويرى ابن تيمية أن على المجتمع المسلم أن يوفر الحرف والمهن ، وإن اضطر أحيانا إلى اشتغال بعض أفراده بحرفة ما عند الضرورة ، لحاجة المجتمع الإسلامى إليها ، مع فرض أجر مناسب للعاملين بتلك الحرفة دون إجحاف أو استغلال للعامل ، « فإذا كان الناس محتاجين إلى فلاحة قوم ونساجتهم أو بنائهم ، صار هذا العمل واجبا يجبرهم ولى الأمر عليه إذا امتنعوا عنه بعوض المثل ، ولا يمكنهم من مطالبة الناس بزيادة عن عوض المثل ، ولا يمكن الناس من ظلمهم بأن يعطوهم دون حقهم ، كما إذا احتاج الجند المرصدون للجهاد إلى فلاحة أرضهم، ألزم من صناعته الفلاحة بأن يفلحها لهم ، فإن الجند ملزمون بألايظلموا الفلاح ، كما ألزم الفلاح أن يفلح للجند » (٣) .

إن الذى يقرأ مناقشة فقهاء الإسلام حول أى مجالات العمل أكثر أولوية ومرضاة لله : العمل الزراعى ، أم الصناعى ، أم التجارى ، وبعد أن يوضحوا أهمية كل مجال وترغيب الإسلام فيه ،نجدهم يفاضلون بين تلك المجالات الاقتصادية ، « فيقول بعضهم:إن الزراعة أفضل المكاسب ، ويقول غيرهم : إن الصناعة وعمل اليد أفضل ، ويقول آخرون : إن التجارة أفضل » (٤) .

ثم يميل أغلبهم إلى القول بأن « الأفضلية فى هذه الأعمال لا تكون شاملة فى كل زمان ومكان ، فقد تكون الصناعة أفضل فى مجتمع هو بحاجة ماسة إليها ، لكن مجتمعا آخر قد توافرات فيه الحرف والمهن ، هو بحاجة إلى الزراعة فتكون الزراعة أفضل ؛ فالأفضلية إذن تتعلق بمصلحة البلد العامة لا بأفضلية نوع من العمل على نوع

---

(١) عبد الرحمن بكر: علاقات العمل فى الإسلام ، الهيئة المصرية لشئون المطابع الأميرية ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٢٤ .

(٢) ناصر على بشيه : التربية الإسلامية والتحديات فى المجال التقنى ، مرجع سابق ، ص١٧٥ ، ١٥٨ .

(٣) ابن تيمية : الحسبة فى الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية ، الطبعة الأولى ، من منشورات مسجد التوحيد ، تحقيق أبو المنذر سامى أنور ، ١٩٩٠ ، ص ٣٠ .

(٤) عبد الحى الكتانى : التراتيب الإدارية ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٨ ـ ١١ .

آخر » (١) .

« الذى يقرأ مثل هذا الجدال الاقتصادى فى كتب الفقه لابد أن يدرك أننا أمام دين دنيوى وأخروى فى نفس الوقت ، دين يناقش فقهاؤه فى الأولويات الاقتصادية فى مجال الإنتاج » (٢) .

أهمية العمل والكسب للفرد والمجتمع :

إن « حياة الإنسان على الأرض موزعة بين السكن والاستقرار، وبين العمل والسعى ، من أجل العيش والاستمرار فى الرسالة الإنسانية ، وحاجته إلى السكن والاستقرار ليست بأقل من حاجته إلى السعى والعمل وبذل النشاط . ومن رحمة الله بالانسان أن قسم الزمن على الأرض ؛ ليحقق من خلال هذا التقسيم الأمرين معا ، فقسم الزمن إلى ليل يجب السكن فيه والإخلاد إلى الراحة والهدوء وتجديد الطاقات ، وإلى نهـار يجـب السعى فيه والعمل من أجل إشباع الحاجات (٣)،وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيـــهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧)** ﴾ [يونس] والمـعنى : « أن الله جعـل لكم الليل لتسكنوا فيه مع أزواجكم وأولادكم ؛ ليزول التعب والكلل بكم وجعل النهار مبصرا ؛ لتهتدوا به فى جوائجكم » (٤) .

ويقول تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّـــن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَـــدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (١٢)** ﴾ [الإسراء] ، أى : «جعلنا الليل والنهار علامتين على وجودنا وكمال علمنا وقدرتنا ، فطمسنا آية الليل للسكون والراحة ، وجعلنا الشمس مضيئة للتصرف فى المعاش » (٥).

ويقول تعالى : ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢)** ﴾ [النحل] ، وقوله: ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ** ﴾ ، «أى : للسكون والأعمال » (٦) ، ويقول تعالى : ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ**

---

(١) إبراهيم النعمة : العمل والعمال فى الفكر الإسلامى ، مرجع سابق ، ص ٢٠ ، ٢١ .

(٢) عبد الرحمن النقيب : مدخل لدراسة الاتجاه الحرفى والمهنى فى التربية الإسلامية ، بحوث فى التربية الإسلامية ،مرجع سابق ، ص ١٢٣ .

(٣) أحمد عبد الرحمن الجاحد : الاتجاه الإسلامى عند بعض مفكرى التربية فى مصر وأثره على التطبيق التربوى من ١٨٠٥ ـ ١٩٥٢ م ، رسالة دكتواره غير منشورة ، جامعة المنوفية ، كلية التربية قسم اصول التربية ، ١٩٨٣ م ، ص ٧٢ ، ٧١ .

(٤) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ٨ ، ص ٣٦٠ .

(٥) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ١٠ ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٦) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ١٠ ، ص ٨٣ .

سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ [القصص] ، « أى : من رحمة الله أن خلق الليل لتسكنوا فيه ، وخلق النهار للترحال والحركات والأشغال » (١) ، والإنسان بين السكن والسعى مسئول أمام الله إن قصر فى أحد الأمرين ، وعبادة الإنسان لله هى فى اتباعه مانظم عليه الكون له ، وإن الحكم على الناس فى الدنيا والآخرة إنما هو بأعمالهم التى تعد المحك الصحيح للجزاء .

ويؤكد القرآن الكريم على تلك العلاقة الوثيقة بين العقيدة فى صورتها النظرية وبين الحياة فى واقعها العملى فى قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥) ﴾ [آل عمران] ، أى : « فالذين هجروا أوطانهم وساروا إلى المدينة وأخرجوا من ديارهم فى طاعة الله وقاتلوا أعدائى فى سبيلى لأسترن عليهم سيئاتهم فى الآخرة فلا أعاقبهم عليها ولأثيبنهم » (٢) .

والإيمان هنا لم يقبع فى النفس على شكل نظرية مثالية تعز على التطبيق ، وإنما تمثل فى الحياة على شكل جهاد فى سبيل الله وهجرة فى مرضاته ، وكفاح من أجل الحق والعيش ، وتلك هى ثمرة الإيمان . والحرف والمهن فى الإسلام « تحتل المساحة الضخمة فيه ، حتى إنها تعتبر الجانب العملى والتطبيقى لكل مفاهيمه ، وأفكاره وعقيدته وشريعته »(٣) ، ولقد « ذكر العمل فى القرآن فى نحو ثلثمائة وستين آية » (٤) تصلح لأرقى اللوائح العمالية فى الحياة .

وإذا كان « الإنسان مفتقراً بالطبع إلى مايقوته ويمونه فى حالاته وأطواره من لدن نشوئه إلى أشده إلى كبره » (٥) ، فإنه لابد له من الاشتغال بمهنة أو حرفة حتى يستطيع الإنفاق على العيال من زوجة وأولاد ؛ لأن الإنفاق فرض عين على الزوج لا على الزوجة ؛ لأن إنفاق المرء على زوجته وأولاده مستحق عليه، قال تعالى: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [النساء : ٣٤] ،

---

(١) الإمام ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٣٩٨ .

(٢) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ٣١٩ .

(٣) محمود السيد سلطان : قضايا فى الفكر التربوى الإسلامى ، مرجع سابق ، ص ١٥٥ .

(٤) عيسى عبده ، أحمد إسماعيل يحيى : العمل فى الإسلام ، مرجع سابق ، ص ٦١ .

(٥) عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة ، مرجع سابق ، ص ٣٨٠ .

وقوله تعالى: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ أى: « يقومون بالنفقة عليهن والذب عنهن، ومتى عجز الزوج عن نفقة زوجته لم يكن قواما عليها ، وإذا لم يكن قواما عليها كان لها فسخ العقد » (١) .

ويحض رسول الله ﷺ المسلمين على التصدق من فائض أموالهم ، فكان يقول : « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول » (٢) . وهل يتصدق إلا من كان لديه فائض من الأموال التي مصدرها الاشتغال بمهنة أو حرفة ؟ ويقول تعالى مؤكدا على تلك المعانى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۝٥ ﴾ [النساء] ، وقوله تعالى : ﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ ﴾ قيل معناه : « اجعلوا لهم فيها وافرضوا لهم فيها ، وهذا فيما يلزم الرجل نفقته وكسوته من زوجته وبنيه الأصاغر ، فكان هذا دليلا على وجوب نفقة الوالد على الولد ، والزوج على زوجته » (٣) .

ويقول تعالى : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ۝٦ ﴾ [الطلاق] ، ويعنى فى الآية : « المطلقات ، فلها السكن ولا نفقة لها ولا كسوة لها ، وإن كانت حاملا فلها النفقة والكسوة والمسكن حتى تنقضى عدتها » (٤) ، فإن « أرضعن لكم أولادكم منهن فعلى الآباء أن يعطوهم أجرة إرضاعهن ، وللرجل أن يستأجر امرأته للرضاع كما يستأجر أجنبية » (٥) .

إن الإنسان لابد له من الاشتغال بالمهن حتى يستطيع أن يوفر النفقة لمن وجب عليه النفقة ، وهى عبارة عن الملبس الذى يدفع عنه البرد والحر ، وكذلك المسكن ، كما وجب عليه توفير القوت الذى يحافظ به على الحياة .

وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧ ﴾ [الطلاق]، «أى: لينفق الزوج على زوجته وعلى ولده الصغير على قدر وسعه حتى يوسع عليهما إذا كان

---

(١) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ٥ ، ص ١٦٨ ، ١٦٩ .
(٢) الإمام البخارى : صحيح البخارى ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ١٣٩ .
(٣) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ٥ ، ص ٣٢ .
(٤) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ١٨ ، ص ١٧٠ .
(٥) المرجع السابق ، والمجلد ، ص ١٦٨ .

موسعا عليه ، وإن كان فقيرا فعلى قدر ذلك » (١) ، وقال تعالى : « ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) ﴾ [طه]، وقد خص آدم بالشقاء ، ولم يقل : فتشقيان ؛ ليعلمنا أن نفقة الزوجة على الزوج ، فمن يومئذ جرت النفقة على الزوج ، ونفقة المرأة : الطعام ، والشراب ، والكسوة ، والسكن » (٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) ﴾ [البقرة] ، « أى : وعلى الأب الطعام الكافى واللباس بالمتعارف فى عرف الشرع من غير تفريط ولا إفراط ، ولا يكلف الزوج ما هو إسراف بل يراعى القصد (٣) » ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان] .

من الآيات السابقة نستدل على ضرورة إنفاق الزوج على زوجته ، ولن يستطيع الإنفاق عليها إلا إذا كان صاحب حرفة أو مهنة أو عمل .

ويوجهنا رسول الله ﷺ إلى فضل النفقة على العيال والمملوك وإثم من ضيعهم أو حبس نفقتهم ، فيقول رسول الله ﷺ : « أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله ، ودينار ينفقه الرجل على دابته فى سبيل الله ، ودينار ينفقه فى سبيل الله ، ودينار ينفقه على أصحابه فى سبيل الله » (٤) ، وهل يستطيع أن ينفق الرجل إلا إذا اشتغل بحرفة أو مهنة ؟ أى : اكتسب . بل يوضح لنا رسول الله ﷺ أن الإنفاق على الزوجة والولد يعلو ماعداه من الأنفاق ، فيقول : « دينار أنفقته فى سبيل الله ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك » (٥) ، ويحذر رسول الله ﷺ من عدم الإنفاق على الأولاد والزوجة فيقول : « كفى بالمرء إثما أن يحبس عمن يملك قوته » (٦) ، والمقصود الحث على النفقة على العيال وبيان عظم الثواب فيه ، وهو أفضل من صدقة

---

(١) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ١٨ ، ص ١٧٠ .
(٢) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ١١ ، ص ٢٥٣ .
(٣) الإمام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ .
(٤) الإمام مسلم : صحيح مسلم ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٧٨ .
(٥) المرجع السابق ، والجزء ، والصفحة .
(٦) الإمام مسلم : صحيح مسلم ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٧٨ .

التطوع ؛ ولهذا قال ﷺ : « أعظمها أجرا الذى أنفقته على أهلك » (١) .

لقد حرص الإسلام على أن يعمل كل فرد من أبنائه ليعف نفسه وآل بيته من : صاحبة وولد . « وهذا الفرد من منطلق إيمانه لن ينظر لعمله نظرة ازدراء مهما كان نوع العمل الذى يعمله ؛ ذلك لأن المجتمع فى حاجة إلى كل الأعمال شريطة أن يكون الكسب من عمل لاضرر فيه ولاضرار » (٢) .

وبهذه النظرة يكتسب الإنسان راحة نفسية بعمله ويكتسب تقدير الجماعة له ، فهو ليس بعالة على أحد بل له جهد ،وهذا الجهد مصروف إلى الجماعة آخر المطاف ، وتلك الراحة وهذا التقدير يجعلان المسلم عضوا فعالا فى الجماعة ، ينفعل بها ، ويتفاعل معها ؛ لأنه عضو فيها ، أليس هو وهى كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ؟ أو هو وهى كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ؟ (٣).

إن المسلم العامل الفقيه بدينه ليتغلب على المعوقات ، ويحقق الأهداف والآمال . وهو بإيمانه قوى ، وهذه القوة فى الفرد مصدرٌ لقوة المجتمع كله ، وما أسعد المجتمع بالأقوياء الراسخين ، من أبنائه الذين تقوم بهم النهضة ، وما أشقى المجتمع بأبنائه الكسالى الذين يأكلون دون عمل .

« إن العمل والتنمية صنوان لايفترقان؛ فلا تنمية بغير عمل، ولا يمكن أن تتصور التنمية الحقيقية بغير عمل » (٤) ، فإذا أراد المجتمع أن ينمى نفسه فلابد أن يأخذ بالاتجاه العملى .

إن « العمل الجاد يكون ذا أثر فى عقل المسلم ، وكذلك تكون العقيدة السليمة موجهة، وإذا كانت النظرة ثاقبة ، فإن شخصية الفرد حتما ستكون قوية ومتزنة » (٥).

والصنائع فى النهاية تكسب صاحبها عقلا . وقد عدها أبو حيان التوحيدى من جملة الأسباب التى تزيد الإنسان : بصيرة ، وحكمة ، وتجربة ، ويقظة ، ومعرفة ، وعلما ، عدها بقوله : « التقلب فى الأمصار ، والتوسط الجامع ، والتصرف فى الصناعات ، وسماع فنون الأقوال » (٦) .

(١) يحيى بن شرف النووى : صحيح مسلم بشرح النووى ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص ٣٤ .

(٢) السيد الشحات : تعليم الصنائع ، الفكر التربوى العربى الإسلامى ، الأصول والمبادئ ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، إدارة البحوث التربوية ، ١٩٨٧ ، ص ٨٧٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٨٧٧ ، ٨٧٨ .

(٤) عبد العزيز الخياط : نظرة الإسلام للعمل وأثره فى التنمية ، الطبعة الأولى ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، القاهرة ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م ، ص ٧٢ .

(٥) السيد الشحات : الفكر التربوى العربى الإسلامى ، الأصول والمبادئ ، مرجع سابق ، ص ٨٧٩ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٨٧٨ نقلها من : أبو حيان التوحيدى : الإمتاع والمؤانسة ، تصحيح وضبط أحمد أمين ، أحمد الزين ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ج ٢ ، د . ت . ص ٣٥ .

دور الإسلام وتعاليمه في نشر الحرف والمهن :

كان للإسلام دور عظيم فى نشر الحرف والمهن والصناعات بين المسلمين ، ويتضح ذلك مما نراه فى كثير من مظاهر الحياة الإسلامية ، كالمساجد والقصور وما احتوت عليه من آيات الصناعة المدهشة الباقية بعض آثارها على امتداد العالم الإسلامى اليوم ، أو ما عرفوه من وسائل الرى الصناعية الراقية ، كالناعور والدولاب وغيرها ، أو إتقان كثير من الفنون الزخرفية ، وصناعة الأوانى الخزفية والمنسوجات والتحف المصنوعة من : الزجاج ، والمعدن ، والعاج ، والخشب ، وتنوع صناعات النسيج ، وإتقان صناعة الكتاب والبارود ، وعمل إبرة السفينة ، والمرايا المحرقة ، والميكانيكا ، والساعة الدقاقة الكبيرة ، واستخراج المعادن : كالحديد ، والرصاص ، والذهب ، والفضة ، والطباعة والبارود ، والأوانى الزجاجية ، والمصابيح العربية الملونة ، والأدوية ، وصناعة السفن المدنية والحربية ، مما يدل بالفعل على أن الحرف والمهن قد تطورت فى العالم الإسلامى من صناعات سازجة لسد حاجة السكان الاستهلاكية المحلية والاكتفاء الذاتى ، إلى حرف ومهن معقدة تتداول فى أسواق دولة مترامية الأطراف هى الدولة الإسلامية .

ومن الطبيعى أيضا فى ظل التنوع فى تلك الصناعات أن تقتسم المدن الكبرى فى الدول الإسلامية الصناعات الكبرى كصناعة المنسوجات والورق فى مصر وسمرقند ، والبسط والسجاجيد فى فارس ، واشتهرت القدس بصناعة السبح . . . إلخ [١] .

إن المسلمين قد أتى عليهم حين من الدهر بعد : انغلاقهم الفكرى ، ومنع الاجتهاد ، وشيوع فتوى بعض العلماء بذلك ؛ فتساءلوا عن حكم الإسلام فى دراسة العلوم الكونية ، بعد أن استيقظ الشرق على تفوق الغرب عليه وبلوغه أقصى مراتب البراعة فى العلوم الرياضية والطبيعة وغيرها [٢] .

إن المسلمين الأوائل قد استطاعوا بالروح السمحة وبالحرية الممنوحة للمسلم أن يكونوا حضارةً إسلامية أصيلة ، تسمى حضارة الخلق والإبداع ، وكان الإسلام مصدرها الوحيد ، وعرفها العالم لأول مرة عن طريق الإسلام ، وحضارةً قام بها المسلمون فى الأمور التجريبية إحياء ، وامتداداً ، وتحسيناً لما عرفه الفكر البشرى من قبل ، تسمى حضارة البعث والإحياء [٣] .

---

(١) عبد الرحمن النقيب : مدخل لدراسة الاتجاه الحرفى والمهنى فى التربية الإسلامية ، بحوث فى التربية الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ١٢٥ .

(٢) السيد الشحات: تطور التعليم الدينى ، دراسة تحليلية فى مصر من ١٨٠٠ ـ ١٩٢٣ ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ٣٨ .

(٣) أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ٢٣٤ .

ومن هنا فإنه باتخاذ طريق الأولين وفلسفتهم التى اشتقت من فلسفة الإسلام ، نستطيع أن نخلق ونعيد حضارتنا التى سلبت منا مرة أخرى ، شريطة أن نعتبر عقيدة الإسلام رسالة مهمة وضرورية ولاغنى عنها.

إن المسلمين الأوائل جعلوا العقول تفكر ، والأيدى تعمل ، والمجتمع ينتج ويزدهر ؛ فطبيعة النظام الإسلامى توجب زيادة الإنتاج فى الأمة ، وصيانة ثروتها من التبدد والضياع ، كما أن طبيعته تزيد من ثروة المجتمع ، وتقلل من نسبة البطالة وعدد الفقراء [١] .

إن التاريخ خير شاهد على أن المجتمع الإسلامى كان يقدر الحرف والمهن ؛ فقد عرف المجتمع الإسلامى للعمل قيمته فى كل عصوره ؛ فكانت الحرف تنتشر فى أنحائه ما بين : تجارة ، وزراعة ، وصناعة ، وكان العلماء والأئمة يحترفون ويعملون بأيديهم سيراً مع توجيه الإسلام ، واقتناعا بهديه فى الكسب الحلال ، وبذلك « لم يفرق الإسلام بين الحياة فى جانبيها الفكرى والعملى » [٢] .

فلا يستطيع التاريخ أن ينسى « فضل التجار المسلمين الذين كانوا يسافرون من حضرموت إلى شرق إفريقية ووسطها وجنوبها ، فينشرون الإسلام واللغة العربية أينما يحلون ، وقد كونوا ممالك إسلامية فى (مدغشقر) وجزر القمر ، وزنجبار ، ودخلوا إفريقيا ، وكونوا سلطنة كبيرة بها عرفت بسلطنة (رابح) ، كما نقلوا الحضارة إلى (ملديف) ، و(سرنديب) ، و(جاوة) ، و(سومطرة) ، والفلبين ، وانتشروا فى جزر المحيط الهادى فى استراليا ، ونشروا الإسلام فى كل موضع نزلوا فيه [٣] .

إن الإسلام يسهم فى « انتزاع تلك النزعة ، غير الإسلامية ـ التى فرضها التخلف الطويل الذى فرض على المنطقة العربية والإسلامية ، كما فرضها على تاريخ بلاد العالم الثالث ـ المتخلف ـ كلها ، وهى النظرة إلى العمل اليدوى نظرة احتقار وازدراء » [٤] ، وسخرية من الأشخاص العاملين بأيديهم .

---

(١) يوسف القرضاوى : مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام ، مرجع سابق ، ص ١٣٠ .

(٢) شوقى عبده الساهى : المال وطرق استثماره فى الإسلام ، مرجع سابق ، ص ٧٠ .

(٣) محمد عبد المنعم خفاجى : الإسلام والحضارة الإنسانية ، بيروت ، دار الكتاب اللبنانى ، ١٩٧٣ ، ص ١٨١ .

(٤) عبد الغنى النورى ، عبد الغنى عبود : نحو فلسفة عربية للتربية ، الطبعة الثانية ، دار الفكر العربى ، ١٩٧٩ م ، ص ٣٣٦ .